الكويت

في عيون أوائل المصورين

وليام فيسي وجيليان غرانت

مركز لندن للدراسات العربية

الكويت في عيون أوائل المصورين



الكويت في عيون أوائل المصورين
تأليف وليام فيسي وجيليان غرانت
ترجمة: أشرف إبراهيم

الناشر: مركز لندن للدراسات العربية، سنة ١٩٩٨
The London Centre of Arab Studies
Vicarage House, 58-60 Kensington Church Street,
London W8 4DB

آي إس بي إن ٨ ١٦ ٩٠٠٤٠٤ ١

يتوفر سجل سي آي بي كامل لهذا الكتاب من المكتبة البريطانية
يتوفر سجل سي آي بي كامل لهذا الكتاب من مكتبة الكونغرس
تتوفر بطاقة فهرسية كاملة لمكتبة الكونغرس

التصميم الفني: Allen Lebon, London
الإنتاج الالكتروني للمادة الفنية: Falcon Electronic Imanging,
Barnwell House, Barnwell Drive, Cambridge
صف الحروف: أشرف إبراهيم
إنتاج فيلم الطباعة: Newsele srl., Milan, Italy

تمت الطباعة والتجليد في إيطاليا

(الصفحة السابقة: خيام البدو في المناطق الداخلية بالكويت بعدسة ألان فيليرز، سنة ١٩٣٩)

المحتويات

الكويت: صور من الماضي، ١٩٠٠-١٩٥٠

".. إن الكويت بالتأكيد مدينة الصحراء والبحر، بلا أرض زراعية أو بساتين على الإطلاق ... وفي نظر سكانها من رجال البحر والبدو الرحل، وهم رجال لا ميل لهم للحرث والزرع، تعتبر الكويت مجرد رقعة من الطمي بين السهل والبحر."

(باركلاي رونكيير، ١٩١٣)

بين الصحراء والبحر

لولا مدينتها الرائجة لظلت الكويت مجرد موقع تلتقي عنده الصحراء بالبحر. فأرض رأس عجوزة التي تطل على البحر وسط مدينة الكويت الحديثة، كانت في يوم من الأيام مجرد قطعة أرض من اليابسة الجرداء تبرز في البحر ولا تختلف عن بقية ساحل شمال شرق الجزيرة العربية القاحل الذي لا تميزه أية معالم طبيعية هامة، بل افتقدت رأس عجوزة إلى الآبار والمراعي التي جعلت بعض من المواقع الداخلية بالكويت تجذب قبائل المنطقة لرعي قطعانها كل موسم. والأراضي الكويتية بصفة عامة كانت تفتقر تماماً إلى الموارد الطبيعية - إلى أن اكتشف النفط فيها عام ١٩٣٨.

واليوم تعتبر الكويت مثالاً من أقوى الأمثلة على موقع للاستيطان البشري لا تلعب الموارد الطبيعية أي دور على الإطلاق في تفسير سبب وجوده وازدهاره قبل العصر الحديث، بل يتعين على المرء أن يفتش عن ذلك التفسير في موقعها الجغرافي على رأس الخليج العربي، حيث أن الكويت تقع على مقربة من أسواق العراق مع بقائها خارج نطاق السيطرة السياسية لحكامه، وفي نفس الوقت يقع ميناؤها الطبيعي الممتاز على نقطة فريدة من الساحل تلتقي عندها خطوط تجارة القوافل بشمال الجزيرة العربية مع تجارة الخليج والمحيط الهندي.

وهناك دائماً ما يثير الفضول والاهتمام بمجتمعات، كالمجتمع الكويتي، تعيش على هامش إمكاناتها البيئية وتنجح في الانتصار على المشاق والحرمان. فقد ظل الكويتيون حتى عقد الأربعينيات من القرن العشرين مضطرين إلى استخدام المراكب الشراعية لجلب المياه العذبة، أهم مقومات الحياة، من شط العرب حيث تجتمع مياه دجلة والفرات قبل أن تصب في الخليج. وتعين عليهم استيراد كافة أصناف الغذاء، باستثناء الأسماك ومنتجات الماعز التي يربيها الكويتيون. ومع أن أراضيهم خلت من الأشجار التي توفر الأخشاب لبناء السفن، فإنهم استغلوا الأخشاب المستوردة من الهند وصاروا بناة سفن مهرة وغزيري الإنتاج، حيث شيدوا معظم أنواع المراكب المستخدمة في الخليج، من سفن البغلة والبوم العظيمة التي تجوب المحيطات للتجارة مع الهند وشرق أفريقيا، إلى مراكب البتيل والبقارة والشوعي المستخدمة في مغاصات اللؤلؤ ومراكب الصيد الصغيرة والقوارب المستخدمة في المياه الساحلية والموانئ.

إن الكتابات التي دونها أمثال آلان فيليارز (Alan Villiers)، الذي رأى بعينه صعوبات الملاحة البحرية والتجارة وصيد اللؤلؤ وسجلها في كتابه الكلاسيكي المعنون "أبناء سندباد" توضح لنا أن نجاح الكويت كان له ثمن أداه أبناء البلد بالعمل الشاق والحرمان والعمر القصير. والصور الفوتوغرافية تضفي روحاً حاضرة على هذه الأوصاف التي سطرها الرحالة والمستكشفون عن طرق الحياة القديمة التي عاش عليها أبناء الكويت - من البحارة وبناة السفن وغواصي اللؤلؤ وصيادي السمك وأهل البادية، إضافة طبعاً إلى الحكام والتجار.

وقد التقطت أولى الصور لهذا البلد الفريد في أوائل القرن العشرين، وهي فترة كانت الكويت قد وصلت فيها إلى ذروة نشاطها كميناء تقليدي، وتبين لنا الصور مجتمعاً في قمة انتصاره على الصعوبات التي واجهته. والحق أن ميناء الكويت كان في تلك الأيام أنشط موانئ الخليج، بل ذهب البعض إلى القول إنه كان أنشط من ميناء مسقط. وتواصل التقاط الصور خلال الخمسين سنة التالية، وتقدم لنا حصيلتها ذخيرة ثرية من المعلومات عن الأوضاع في هذا البلد الصغير قبل التحديث، كما توضح لنا أولى بوادر التيار القادم، حين بدأت الكويت تتأقلم مع التغيرات الجديدة التي غدت موجة شاملة حولتها تماماً بعد الحرب العالمية الثانية وجرفت أمامها سبل العيش القديمة إلى الأبد.



أعلى: نقطة التقاء الصحراء بالبحر. ميناء الكويت في صورة التقطت بعدسة بانورامية من دار الاعتماد السياسي البريطانية، ديسمبر ١٩١٣ شكسبير ١٩١٣

وبالمثل عاش الكويتيون أيضاً على هامش البقاء السياسي، حيث أن أراضيهم وقعت عند نقطة التقت فيها وتصارعت دوائر نفوذ جيرانها الكبار والقوى الأجنبية. وفي حين يعتبر غزو واحتلال الكويت في الفترة ١٩٩٠-١٩٩١ حدثاً فريداً من حيث شدة وحشية المحتل ومبلغ حماقته، إلا أنه لم يكن فريداً من حيث حقيقة وقوعه. فاحتمال ابتلاع أراضيها من قبل جار قوي هو احتمال عاشت معه الكويت طيلة تاريخها، وقد تمثلت إحدى المهام الرئيسية لحكامها في تجنب مثل هذا المصير بكافة السبل المتاحة لهم، وتجحوا في ذلك من خلال سلسلة من حركات التوازن الماهرة التي مارسوها بملاعبة الجار ضد الجار، وانتقاء القوة الحامية ببصيرة وحكمة. وتبث الصور الفوتوغرافية الروح في التقارير الكثيرة المتاحة لنا عن حكام الكويت مع تطور طبيعة سلطتهم من التقاليد الأبوية في القرن التاسع عشر إلى أوضاع القرن العشرين حين كانت بريطانيا تحمي استقلال دولة الكويت، وحين تعزز مركز الحاكم بفضل علاقته معها.

جذور الكويت

تأسست بلدة الكويت نفسها في حقبة حديثة نسبياً ويغلب احتمال أن مستوطنة صغيرة نشأت في موقعها الراهن خلال القرن السابع عشر، ربما أقامها أبناء قبيلة العوازم الذين اعتمد مصدر رزقهم على البحر، وكانت بيوتهم مشيدة حول حصن صغير أو موقع مسور من النوع المعروف باسم كوت، أو الكويت بصيغة التصغير. ويعتقد أن ذلك الحصن كان يخضع لشيخ من شيوخ بني خالد، وهم قبيلة قوية كانت أيامها تسيطر على شمال شرق الجزيرة العربية انطلاقاً من مدينة الهفوف التي كانت مدينتهم الرئيسية بمنطقة الأحساء.

بين عامي ١٦٢٠ و١٦٧٦، أصيب وسط الجزيرة العربية بسلسلة من مواسم الجفاف التي أجبرت العديد من سكانه على الهجرة من أجل البقاء، فاتجهت العديد من تلك التجمعات البشرية إلى شرق الجزيرة العربية، وكان منهم جماعة عرفوا فيما بعد باسم العتوب. وقد غادرت عائلات العتوب منطقة الأفلاج الواقعة في جنوب نجد، وهاجرت إلى ساحل الأحساء حيث استقرت في قطر، وهناك مارسوا صيد الأسماك واستخراج اللؤلؤ والملاحة. وفي هذا الموقع الذي يبعد حوالي ٣٠٠ ميل عن الكويت ولدت العلاقة المتينة التي ربطت الكويتيين بالبحر. وفي عام ١٧٠١ أجبر العتوب على مغادرة قطر، فاستقلوا مراكبهم التي كان عددها قد وصل إلى ١٥٠ مركباً صغيراً، واتجهوا إلى البصرة حيث التمسوا الحماية من العثمانيين. ولما لم يحصلوا على ما نشدوه، هاجروا من البصرة وبعد رحلة قصيرة استقر بهم المقام في خليج الكويت.

ليس من المؤكد متى وقعت هذه الأحداث، إلا أن أول ذكر للكويت في السجلات يعود إلى عام ١٧٠٩ عندما وصفها رجل سوري اسمه مرتضى بن علي بن علوان، وكان قد زارها في طريق عودته من مكة المكرمة بعد أداء فريضة الحج، حيث وصف ميناء صغيراً يعج بالنشاط يشبه إلى



أسفل: المناطق الداخلية بالكويت منبسطة ولكنها توفر المرعى الجيد في فصلي الشتاء والربيع، وهؤلاء الجمالة كانوا ضمن جماعة الجيولوجي أرنولد هايمن وهم هنا يركبون جمالهم عبر الأراضي الواقعة شمال البرقان، إلى الجنوب من مدينة الكويت
هايمن إبريل ١٩٢٤

حد كبير الكويت القديمة التي نعرفها من الصور الفوتوغرافية، بما في ذلك شوارعها الضيقة المفضية مباشرة إلى الميناء وسوقها، وحتى أبراجها التي ربما كانت قائمة على سور أحاط بالمدينة. وكان ذلك المكان يعرف باسم الكويت إلى جانب اسمه الآخر الذي كان استخدامه أكثر شيوعاً في ذلك الوقت، وهو القرين. من المحتمل أن العتوب كانوا قد وصلوا الى ذلك الموقع قبل ذلك وساهموا في نموه، الا أن مرتضى بن علوان لم يأت على ذكرهم.

ونحن نعلم من روايات التاريخ المحلي أنه في مطلع القرن الثامن عشر أوكل حكم مجتمع الكويت إلى ثلاث عائلات من العتوب، اختص كل منها بمجال من مجالات المسؤولية. فكان آل خليفة الأثرياء مسؤولين عن التجارة واللؤلؤ، وآل الجلاهمة مسؤولين عن المراكب والحماية البحرية، في حين كان آل الصباح ينتقى من بينهم الشيخ الحاكم الذي يتولى شؤون القانون والنظام وعلاقات الكويت بحلفائها من بني خالد وبالقبائل البدوية الأخرى.

وتحت حكم العتوب خرجت الكويت من تحت ظل بني خالد. والمعتقد أن أول حاكم مستقل للكويت هو صباح الأول، الذي حكم في الفترة بين عامي ١٧٥٢ و١٧٥٦ تقريباً، واليه يعود الفضل في بناء سور حول المدينة. وكان العتوب قد نموا بقدر ملحوظ، حيث يشير تقرير هولندي بتاريخ ١٧٥٦ إلى أن العتوب كان لديهم "٣٠٠ مركب، ولكن معظمهم من النوع الصغير لانهم يستخدمونها فقط في الغطس وراء اللؤلؤ، وهو نشاطهم الوحيد إلى جانب صيد الأسماك في الشتاء، وعددهم حوالي ٤٠٠٠ رجل وهم مسلحون بالسيوف والدروع والرماح" وكان العتوب قد حصلوا في عقد الخمسينيات من القرن الثامن عشر على حق استخراج اللؤلؤ من مغاصات اللؤلؤ البحرينية. وبحلول عام ١٧٥٨ كانت طرق القوافل تربط بين الكويت ومدينة حلب بالشام. وفي ١٧٦٥ كان الرحالة الدنمركي نيبوهر (Niebuhr) قد سمع أن الكويت لديها ٨٠٠ مركب وأن سكانها يبلغ عددهم ١٠ آلاف نسمة، وتربطها بالشام قوافل تجارة منتظمة.

وأهم ما في الأمر هو أن الكويت كانت قد بدأت تستغل موقعها الجيد كبديل لميناء البصرة. فمن وقت لآخر كانت تصرفات القراصنة على شط العرب، إضافة إلى الرسوم الجمركية الباهظة، قد رفعت من تكلفة التجارة مع البصرة وفتحت المجال أمام الكويت لتتنافس معها. وفي ذلك الفترة رسخ نمط النمو المميز للكويت على أساس موقعها بين المرفا الطويل المزدهر من ناحية، والأراضي الداخلية المنبسطة المعروفة باسم الصفاة من ناحية أخرى، حيث كانت البضائع تحمل على قوافل الجمال، ويفد أهل البادية إليها للتجارة.

وقد برزت الكويت تحت رعاية خلفاء الشيخ صباح الأول وصارت تحتل مركزاً قوياً في تجارة الخليج والمحيط الهندي. وفي فترة ما خلال عقد السبعينيات من القرن الثامن عشر تعرض مجتمع الكويت لنكسة حين رحل عنها فرعان من أفرع العائلة، وهما آل خليفة الأثرياء و آل الجلاهمة الملاحين، فذهبوا الى قطر ومنها الى البحرين حيث صار آل خليفة فيما بعد العائلة الحاكمة. ومع ذلك نمت الكويت حتى صارت في أول القرن التاسع عشر مركزاً هاماً لبناء السفن مع قيام تجارها باستثمار ارباحهم في زيادة حجم سفنهم. وقد تميزت عهود الحكام المبكرين، مثل عهود الحكام التاليين، بانتهاز نشط للفرص التي سنحت لهم، مثل تعرض قبيلة بني كعب البحرية العدوانية القائمة في شط العرب للهزيمة، واقامة تحالفات في أوقات مختلفة مع جيران الكويت الذين كانوا يهددونها. وبالتالي كانت الكويت في مراحل مختلفة متحالفة مع الإصلاحيين المتحمسين بالدولتين السعوديتين الأولى والثانية، أو مع القواسم في جنوب الخليج، أو مع العثمانيين، أو مع شركة الهند الشرقية البريطانية. واذا كانت هذه التحالفات تبدو غامضة ومربكة لمن لم يألف التعقيدات السياسية بالجزيرة العربية، فإن بعض الغموض ينجلي عندما يدرك المرء أن بقاء الكويت كان في أغلب الأحوال هو غاية التحالف، وكان استمرار وجودها هو الهدف الأساسي الذي يوجه تصرفات حكامها وقد نجحوا بالفعل في الحفاظ على ازدهار الكويت، حتى في أوائل القرن التاسع عشر عندما كان الخليج يغلي بالتنافس المحتدم بين مختلف حكام مناطقه الساحلية.

كان جابر الأول، الذي حكم بين عامي ١٨١٤ و١٨٥٩، مثالاً نموذجياً لحكام الكويت. فقد تميز بحكمه الأبوي من القالب العربي الأصيل، واشتهر بدعمه السخي لفقراء الكويت، واهتم بالحفاظ على علاقات جيدة مع البريطانيين، الذين نجحوا عام ١٨٢٠ في هزيمة "القراصنة" من قبيلة القواسم القائمة في جنوب الخليج واقامة السلام في مياهه، مما عاد بالنفع العظيم على تجارة الكويت. وطوال عقد العشرينيات أدى

جابر الأول مبلغاً سنوياً صغيراً إلى العثمانيين. ولكن يبدو أنه لم يزد على الاعتراف الاسمي الذي اعتاد شيوخ العرب تقديمه بشكل دوري كوسيلة لتفادي تدخل تركيا بشكل أعمق في شؤونهم وبالتالي يحافظون على استقلالهم الفعلي. ومن الملفت والهام أنه لا يوجد ذكر لمسؤولين أو ممثلين عثمانيين مقيمين في الكويت إبان فترة حكمه أو في أي مرحلة أخرى. وفي نفس الوقت لم يترفع الشيخ جابر الأول عن التقارب مع المصريين – الذين كانوا اسمياً تابعين للسلطان العثماني ولكن في الواقع كانوا يبرزون كمنافسين له – إبان فترتي احتلالهما للدولة السعودية ودخولهما في علاقات وجيزة مع الحكام الخليجيين. أما في عام ١٨٣١، خلال الفترة الواقعة بين الغزوين المصريين، فقد مد الشيخ جابر الأول يد المساعدة للإمام السعودي تركي عندما كان وضع الأخير قوياً. ثم ضرب الشيخ جابر الحصار حول البصرة الخاضعة للعثمانيين. إلا أنه في عام ١٨٣٧ ساعد العثمانيين على تدمير ميناء المحمرة الذي كان ينافس ميناءي البصرة والكويت. وهذه التحركات التي تبدو سطحياً وكأنها متناقضة أملتها عليه الحكمة في ظل الظروف القائمة: فقد اعتمد بقاء الكويت على التطبيق الذكي لسياسة الأمر



كانت مساعدة الفقراء أحد الواجبات التي لا يستطيع أي حاكم عربي تجاهلها إن أراد الحفاظ على شرعيته. وكان حكام الكويت يتميزون بالسخاء. وقد اشتهر الشيخ جابر الأول بصفة خاصة من بين حكام الكويت المبكرين، بل كان يعرف باسم "جابر العيش". ونرى في هذه الصورة توزيع الزكاة على أهالي الكويت في ٢٢ يونيو ١٩١١.
شكسبير، ١٩١١

الواقع، والتي تجسدت في الحياد والمسالمة. وفي عام ١٨٣٨ قام العثمانيون، بدلاً من ضم الكويت والمطالبة بالخراج، بمنح الشيخ جابر بساتين تمر شاسعة في منطقة شط العرب. وكان الغرض من ذلك هو أن تقوم الكويت بحماية ميناء البصرة.

أما أكثر الخطوات التي خطاها الشيخ جابر مجازفة فجاءت في عام ١٨٣٨ عندما سمح للمصريين أثناء غزوهم الثاني لنجد والأحساء بأن يرسلوا ممثل لهم للاقامة في الكويت. ولبعض الوقت صارت الكويت قناة حيوية لامداد الغزاة المصريين الذين كانوا على ما يبدو على وشك التخلي عن انتمائهم للإمبراطورية العثمانية وتكوين إمبراطورية لهم في الجزيرة العربية والعراق وسوريا. ولكن هذه الأحلام تبددت في عام ١٨٤٠ وانسحب المصريين من نجد. وبعد عام ١٨٤٣ توخت الدولة السعودية الثانية جانب الحرص وعملت على تجنب إغضاب تركيا أو بريطانيا، فسمحت لدولة الكويت المستقلة بمواصلة مشاريعها التجارية في سلام. وفي نفس الوقت تقريباً أوكل الشيخ جابر سلطته إلى ابنه صباح الثاني، الذي تولى زمام الحكم عقب وفاة والده في سنة ١٨٥٩، وظل يحكم البلاد حتى عام ١٨٦٦.

علاقات الكويت المبكرة مع بريطانيا

يمكن تتبع العلاقات بين الكويت وبريطانيا إلى بدايات حكم آل الصباح فمع نمو مصالح شركة الهند الشرقية البريطانية في الخليج في أواخر القرن الثامن عشر اهتم البريطانيون بحماية خطوط اتصالاتهم السياسية والتجارية بين الهند وشرق البحر المتوسط مروراً بالخليج. ولهذا فان السياسة العامة التي اتبعتها بريطانيا نصت على ضرورة مراعاة العلاقات الجيدة مع السلطات التركية العثمانية في دمشق وبغداد والبصرة.

ولكن الأوضاع المحلية في شط العرب لم تكن دائماً تتحلى بالاستقرار، ففي الفترة ١٧٧٥-١٧٧٩، وبسبب الاحتلال الفارسي للبصرة، قامت محطة شركة الهند الشرقية هناك بنقل مركز البريد الصحراوي إلى الكويت. ويبدو أنه منذ ذلك التاريخ والبريطانيون يدركون بوجود ميناء الكويت الممتاز. وفي الفترة ١٧٩٣-١٧٩٥ انتقلت محطة البصرة إلى الكويت بسبب نشوء الصعوبات مع المسؤولين العثمانيين. وعندما تعرضت الكويت في تلك الفترة لهجوم من قوة وهابية، ساهمت السفينة فايبر (Viper) التابعة لشركة الهند الشرقية في رد المعتدين. وكانت هذه هي أولى المناسبات المتعددة التي تدخل فيها البريطانيون للدفاع عن الكويت. وقد تلقى الازدهار الكويتي دفعة جديدة بفضل الحرب بين بريطانيا وفرنسا التي جعلت من الأفضل للبريطانيين ائتمان المراكب العربية على بريدهم وبضائعهم، حيث كانت حمولة المراكب من البضائع والبريد تفرغ بأمان في الكويت ثم تنقل براً بقوافل الجمال إلى حلب.

ظلت العلاقات بين الكويت وبريطانيا ودية في معظمها طيلة القرن التاسع عشر. وقد وضع البريطانيون الكويت في حساباتهم باعتبارها موقع محتمل لعملياتهم في البصرة. ولكن يبدو ان محطة شركة الهند الشرقية لم تنتقل إلى الكويت، والى جزيرة فيلكا بالتحديد، إلا مرة واحدة، وكان ذلك في الفترة ١٨٢١-١٨٢٣. وقد تميز النصف الأول من القرن التاسع عشر بتورط شركة الهند الشرقية المتعاظم في ضمان سلامة تجارتها وخطوط اتصالاتها في مياه الخليج. ولهذا الغرض شرع البريطانيون بين عامي ١٨٠٦ و١٨٢٠ في سلسلة من الحملات البحرية ضد مشيخات القواسم "القراصنة" في الجزء الجنوبي من الخليج. وقد أعقبت تلك الحملات سلسلة من المعاهدات المتتالية عقدتها بريطانيا مع هذه "الإمارات المتصالحة" (وهي اليوم الإمارات العربية المتحدة)، وختمتها في عام ١٨٦١ بالمعاهدة الدائمة للسلام البحري، التي شملت البحرين إلى جانب المشيخات الجنوبية.

وبما أن الكويت لم تكن قد مثلت في يوم من الأيام خطراً على السلام البحري، فإنها لم تنضم الى المعاهدة الدائمة. ولكن خلال الاحتلال المصري لنجد والأحساء في الفترة ١٨٣٧-١٨٤٠، تخوف المقيم السياسي البريطاني في الخليج، وكان رجلاً ماهراً اسمه صامويل هينل (Samuel Hennell)، من أن يستخدم الأسطول الكويتي في الخليج لدعم المصريين. فاقنع حاكم الكويت في عام ١٨٤١ بالانضمام الى اتفاقية السلام البحري لمدة عام واحد فقط. وبخلاف ذلك فان البريطانيين حرصوا على عدم الدخول في معاهدات مع الكويت، وظلوا على ذلك حتى عام ١٨٩٩. ومع هذا فإن المقيمين السياسيين البريطانيين الذي توالوا على المنصب في بوشهر الواقعة على الساحل الفارسي استمروا في مراقبة الأوضاع في الكويت. ويرسم لنا التقرير الذي رفعه المقيم

البريطاني هيل إلى رؤسائه صورة واضحة عن الكويت في تلك الفترة:

هذه المدينة تعتبر مثالاً ممتازاً على الازدهار التجاري، رغم افتقادها لكل المميزات تقريباً باستثناء مينائها العظيم. وسكانها كثيرون، حيث يمكن أن تقدم حوالي ستة آلاف رجل قادرين على حمل السلاح، وهو رقم إن ضرب في متوسط معقول سيجعل عدد السكان الإجمالي حوالي خمسة وعشرين ألف نسمة.. إن نشاط وشجاعة السكان المتحدين اتحاداً وثيقاً لا يشوبه الثأر أو الشقاق، تجعلهم يحظون باحترام كافة القبائل البحرية الأخرى ... إن حكومة الشيخ جابر تتسم حقاً بالاعتدال والرعاية الأبوية ... والدخل الصغير الذي يحققه الشيخ جابر - [يتم] - صرفه على إقامة مائدة طعام عامة تتصف بالسخاء والبساطة والبعد عن التكلف، ويبدو أن الجميع يستضافون عليها بترحاب. وهذا السخاء، مقروناً بالغياب التام لأي شكل من أشكال التظاهر بالعظمة والتفوق، هو ما يجعل الشيخ جابر وابنه الشيخ صباح ... يحظيان بأعظم شعبية وسط رعاياهما

وإلى ذلك أضاف مساعد المقيم السياسي كمبل في عام ١٨٤٥ أن الكويت بها ٣١ سفينة للإبحار في المحيطات من نوعي البغلة والبتيل تتراوح حمولتها ما بين ١٥٠ و٣٠٠ طن وتستخدم بصورة متواصلة في التجارة مع الهند. يضاف إليها ٥٠ مركباً أصغر حجماً تستخدم في التجارة داخل الخليج، وحوالي ٣٥٠ مركباً لاستخراج اللؤلؤ كما قال كمبل: "إن الشيخ صباح، الذي أوكل إليه أبوه الشيخ جابر إدارة شؤون المدينة، لا يجبي الضرائب ولا الجمارك. فالميناء حر تماماً، باستثناء ضريبة بسيطة تفرض على معاملات البيع والشراء التي يمارسها أهل البادية في المدينة، وهي المصدر اليتيم لدخل الشيخ. وتصل قيمتها إلى حوالي ٣٠٠٠ دولار سنوياً".

من الواضح أن الزائرين البريطانيين اعتبروا الكويت "مدينة فاضلة" بحرية صغيرة تحت حكم شيوخ خيرين كرماء. ولا يوجد سبب للتشكيك في نظرتهم تلك. فبحلول منتصف القرن التاسع عشر نرى في الكويت مجتمعاً يتميز بالنشاط والتلاحم استفادت تجارته من السلام البحري الذي رعته بريطانيا. كما أن قطاع اللؤلؤ الذي لعب أسطول الكويت دوراً هاماً فيه كان قد حقق نمواً كبيراً. وكانت صادرات الكويت الرئيسية هي التمر (من العراق إلى الهند) والخيول (من نجد إلى الهند البريطانية). كما ضمت قائمة الصادرات والواردات القمح والسمن والبن والأرز والسكر، والأخشاب المخصصة لبناء السفن والمنازل، والبهارات، والمنسوجات القطنية، والأسماك المجففة، والفواكه المجففة، والتبغ. وبحلول عام ١٨٦٠ كان أسطول الكويت التجاري قد صار أكبر أسطول في الخليج، وتجاوز حجمه حتى أسطول البحرين. وفي الستينيات من القرن الماضي كان المستكشف البريطاني وليام بالغريف (William Palgrave) محقاً حين وصف الكويت بأنها "أنشط ميناء في الخليج". وفي هذا إنجاز باهر لدولة لا تملك من الموارد الطبيعية غير مهارة أهلها وجهدهم.

مع بدأ عقد الستينيات من القرن التاسع عشر بدأت تظهر في منطقة الخليج آثار الثورة التكنولوجية المتسارعة في أوروبا، والتي كان اختراع التصوير الفوتوغرافي عام ١٨٣٩ وجه من أوجهها المتعددة. فبحلول المحركات البخارية محل الأشرعة صارت الدوريات البحرية الحربية قادرة على الاستجابة للأحداث بصورة أسرع من ذي قبل. وفي عام ١٨٦٢ بدأت شركة الهند البريطانية للملاحة البخارية خدمة منتظمة كل أسبوعين بين الهند والخليج تتوقف في الكويت. مما وفر وسيلة هامة جديدة للتجارة والاتصالات، رغم أن غالبية البضائع المشحونة في الخليج ظلت تنقل على المراكب العربية. وقد أدى توقف الباخرة في ميناء الكويت إلى تقلص تجارة البصرة، مما أثار قلق العثمانيين وربما أيضاً أرق بعض النواخذة الكويتيين. ولحرصه على تقليم أجنحته لتتماشى مع المصالح العثمانية طلب الشيخ صباح الثاني من شركة الملاحة أن تنقطع عن زيارة الكويت. إلا أنه من ناحية أخرى رفض في عام ١٨٦٦ عرضاً عثمانياً بتعيين قائمقام (حاكم ولاية محلي) في الكويت.

وبغض النظر عن دور البواخر، واصل حجم التجارة زيادته ونمت كميات البضائع المصنعة التي وصلت أسواق شرق الجزيرة العربية، وبصفة خاصة الأقمشة والمنسوجات. وفي عام ١٨٦٤ قام البريطانيون بمد أول خط برقيات بحري في الخليج حيث امتد من كراتشي إلى جاسك على الساحل الإيراني، ومنها إلى بوشهر والفاو عن طريق شبه جزيرة مسندم. وبطبيعة الحال عمقت هذه التطورات اهتمام بريطانيا بالحفاظ على الهدوء والسلام في مياه الخليج وضمان العلاقات الجيدة مع حكام ساحله. فمع دخول القرن التاسع عشر عقد الستينيات كان البريطانيون عازمون على صون هيمنتهم في تلك المنطقة التي بدت وكأن النفوذ

فيها ينحصر عليهم دون سواهم، وهو وضع أقاموه بإتباع سياسة التحكم عن بعد دون تحمل ما يترتب على الاستعمار المباشر من مشكلات وتكلفة.

الكويت وبريطانيا وتركيا، ١٨٧١-١٨٩٦

إلى أن اندلعت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ظلت سياسة بريطانيا في الحفاظ على سلام خطوط اتصالها مع الهند قائمة على أساس العلاقات الودية مع تركيا العثمانية والاعتراف بالمصالح العثمانية في الشرق الأوسط. ولم تشكل هذه المعادلة أية مشكلة في منطقة الخليج طالما لم يزعزع العثمانيون الأوضاع القائمة فيها. وفي حين أن البحرين ومسقط كانتا استثناءً مقلقاً لهذه القاعدة، فإن بريطانيا بصفة عامة استطاعت الالتزام بمبدأها الأساسي في عدم التدخل أبداً في الخلافات المحتدمة على الأرض في شرق الجزيرة العربية مع العمل بقدر الإمكان على ضمان وقوف حكام ساحل الجزيرة العربية المستقلين موقف الموالاة لبريطانيا. وكانت وجهة النظر البريطانية الرسمية تعتبر الكويت دولة مستقلة داخل دائرة النفوذ العثماني، مما يفسر إحجام بريطانيا عن الدخول في أي نوع من العلاقات الرسمية مع حكام الكويت. ولكن من الناحية العملية كان البريطانيون حذرين تجاه الأتراك مثلما كانوا حذرين تجاه أية قوة أخرى تهدد أمنهم البحري، فحثوا حكام الخليج على الاقتناع بأن أفضل وسيلة لحماية استقلالهم المحلي هي الالتزام بإطار اتفاقيات السلام البحري.

انقضى عهد التوازن الحرج في الخليج عام ١٨٧١ عندما غزا العثمانيون شرق الجزيرة العربية ووضعوا أيديهم على منطقة الأحساء. وبدا من المرجح في ضوء السياسة التركية التوسعية الجديدة أن تركيا ستبتلع الكويت بعد أن أطبقت عليها بفكيها، الأول في ولاية البصرة والفك الآخر في ولاية الأحساء الجديدة والتي سماها حكامها الأتراك الجدد "ولاية نجد"، اسماً مستغرباً ويكشف عن نواياهم المشئومة. وبإقامة هذه الولاية انقطعت الكويت عن حليفتها الدولة السعودية - والتي كان انهيارها إثر اشتعال الاقتتال بين أواصرها بعد عام ١٨٦٥ هو الذي جاء أصلاً بالأتراك إلى الأحساء - يضاف إلى ذلك أن التوسع العثماني في شرق الجزيرة العربية كان المطمح الأكبر لحاكم بغداد النشط، مدحت باشا. ولم يكن في وسع الشيخ عبد الله الثاني حاكم الكويت (حكم ١٨٦٦-١٨٩٢) أن يفعل شيئاً حيال ذلك سوى أن يقدم نفسه حليفاً مخلصاً للأتراك. وفي مقابل ذلك نجح في انتزاع تعهد من الأتراك بأن الكويت ستواصل التمتع باستقلالها الإداري.



كان مدحت باشا حاكم بغداد العثماني المتميز بالطموح والهمة، مسؤولاً عن إعادة احتلال الأتراك للأحساء بعد انقطاع عنها دام قرنين.

وبفضل هذا التعهد لعبت الكويت دوراً كاملاً في الحملة العثمانية على الأحساء عام ١٨٧١، حيث ساهمت بثلاثمائة سفينة للنقل وبعض الفرسان. وقد أقام الأتراك عاصمتهم في الهفوف بواحة الأحساء، وراحوا يدمجون الأحساء دمجاً كاملاً في النظام الإداري العثماني، مثلما كانوا فعلوا في القرن السادس عشر. وفي حين قبل الشيخ عبد الله لقب قائمقام، ظلت الكويت تتمتع بالاستقلال وازدهرت أحوال تجارها الذين كانوا يوردون الامدادات إلى الأتراك في الأحساء. ولكن قيام مدحت باشا بالإعلان عن انقضاء حكم آل سعود في نجد، وهو إعلان جاء تعبيراً عن حلم لا عن واقع، قد أثار مخاوف آل الصباح الذين كانوا كعادتهم دوماً يسعون إلى تجنب الحكم العثماني المباشر.

إلى أن تولى الشيخ مبارك مقاليد الحكم عام ١٨٩٦، كان يبدو أن التعاون مع الأتراك هو المسار الحكيم الوحيد، وبصفة خاصة في ظل احتمالات تضرر بساتين التمر التي تملكها العائلة الحاكمة في منطقة شط العرب. وعندما انتقل الحكم من عبد الله الثاني إلى محمد الأول عام ١٨٩٢، فإنه هو وشقيقه جراح الذي كاد فعلياً أن يكون شريكه في الحكم، واصلا التمسك بسياسة الموالاة للعثمانيين، يدعمهم في ذلك تاجر قوي اسمه يوسف الإبراهيم كان يوالي تركيا ويملك هو الآخر أطياناً واسعة في العراق. ولكن كانت نتيجة لهذه السياسة أن دبت الخلافات في صفوف الكويتيين والتمس بعضهم المساعدة من أحد أشقاء محمد الآخرين، ألا وهو مبارك بن صباح.

الشيخ مبارك

في هذا الوقت كان الشيخ مبارك أحد أطراف مثلث الحكم، بعد أن أوكل إليه شقيقاه مسؤولية الشؤون العسكرية - أي الفداوية والحلفاء من أهل البادية ورغم شعور الشيخ مبارك بالعزلة عن قلب السلطة، فإنه استمد قوته من قاعدة نفوذه في الأوساط العسكرية. وفي المحاولة الوحيدة في تاريخ الكويت للاستحواذ على الحكم بالقوة، قام مبارك وولداه جابر وسالم (تولى كلاهما الحكم فيما بعد) بقتل محمد وجراح

في الساعات الأولى من صباح أحد أيام شهر مايو عام ١٨٩٦

كان تولي الشيخ مبارك للحكم ضربة قوية ضد التوجهات الموالية للعثمانيين في الكويت. كما اتسم حكمه بالإقرار بأن بريطانيا هي مفتاح ضمان حماية الكويت ضد القوى الإقليمية الأخرى التي كان بوسعها هزيمة إمارة الكويت الصغيرة. وكانت تلك الحسبة الدقيقة تنم عن الحكمة والبصيرة، حيث أنه مهما كان من أمر الأهداف الإمبريالية البريطانية، فانها لم تشتمل أبداً على حرمان الكويت من استقلالها. وفي العقد المبتدئ بعام ١٨٩٠ لم يكن العثمانيون هم مصدر قلق الكويت الوحيد. بل أقلقتها أيضاً طموحات قوة جديدة برزت في وسط الجزيرة العربية، ألا وهي قوة آل الرشيد، حكام حائل في شمال نجد، الذين كانوا منذ العقد الماضي قد نصبوا أنفسهم حماة لوسط جزيرة العرب، بل وصل بهم الأمر إلى أن يتسببوا خلال عام ١٨٩١ في هجرة آل سعود من مركز حكمهم في الرياض واللجوء إلى المنفى. وفي أوائل عهد مبارك كان يوسف الإبراهيم يعمل على استمالة كل من العثمانيين وآل الرشيد في سعيه لاستعادة مركزه السابق في الكويت.

رغم أن الأتراك فسروا استيلاء مبارك على الحكم على أنه مؤامرة بريطانية، فانه لا يوجد على دعواهم أي دليل، كما أن البريطانيين لم يغيروا سياستهم تجاه الكويت إلا في عام ١٨٩٩. وقد بادر مبارك على الفور برفع طلب إلى السلطان العثماني للاعتراف به في منصب قائمقام مثله مثل الحاكم الذي سبقه. ورغم أن الأتراك أرادوا أن يفرضوا سلطانهم المباشر على الكويت، إلا أن مبارك حصل في النهاية على ما أراد، وتم الاعتراف بالكويت كقضاء مستقل داخل سنجق تابع لولاية البصرة – وهي علاقة لا يمكن وصفها بأنها وثيقة. وعلى سبيل الاحتياط قام الشيخ بمبادرات تجاه المقيم البريطاني في بوشهر للاستظلال بحماية بريطانيا، وهو مسعى أحرز فيه النجاح بعد فشل أولي. وبذلك رسخ الشيخ مبارك في باكورة عهده القاعدة التي سار عليها بقية سنوات حكمه، وهي حركة توازن ماهرة يمكنه من خلالها تبعاً للظروف أن يتصرف وكأنه موظف عثماني أو حاكم مستقل أو حاكم يتمتع بالحماية البريطانية. كان النجاح في الحكم يستدعي الدخول في هذه المناورات، ومن هنا نبع الاحترام الواسع الذي حظي به الشيخ مبارك بصفته أدهى حكام الكويت. وفي نهاية حكمه عام ١٩١٥ كانت الكويت قد احتلت موقعاً لم يسبق له مثيل على الخريطة الجيوسياسية، وغطت أراضيها رقعة أوسع من أي وقت مضى. واستحق الشيخ مبارك عن جدارة لقب "مبارك الكبير" الذي اشتهر به.

التزم البريطانيون في بادئ الأمر بموقفهم المعتاد بمحاذرة التورط رسمياً في الكويت. ولكن عقد التسعينيات من القرن التاسع عشر شهد اهتماماً قريباً بمنطقة الخليج من قبل القوى العظمى آنذاك، وصارت بريطانيا قلقة ليس فقط حيال تركيا، ولكن أيضاً تجاه خطط روسيا وألمانيا وفرنسا الرامية إلى توسيع نفوذهم هناك. وبذلك اكتسبت الكويت فجأة أهمية استراتيجية جديدة. وفي ضوء المخططات الروسية والألمانية المتنافسة لبناء خط سكة حديد يربط بين تركيا وبغداد مع إقامة محطة نهائية تطل على الخليج العربي في الكويت، اضطر البريطانيون في نهاية المطاف إلى عقد اتفاقية مع مبارك عام ١٨٩٩، إلا أنها ظلت سراً لم يعرف العثمانيون شيئاً عنه في بادئ الأمر.

وبمقتضى الاتفاقية البريطانية الكويتية عام ١٨٩٩ حصلت الكويت على الحماية، وفي مقابل ذلك تعهد الشيخ مبارك بأن بلاده لن تتنازل عن أي جزء من أراضيها لأية قوة أجنبية دون الحصول على موافقة بريطانية مسبقة بذلك. وبالتالي ضمن الشيخ مبارك استقلال الكويت عن تركيا ودفع ثمن ذلك الضمان بوضع زمام شؤون الكويت الخارجية في أيدي بريطانيا.

فتحت هذه الاتفاقية باب الفرص الجديدة أمام الشيخ مبارك. فبعد أن استظل آل سعود بحمايته اثر خروجهم من الرياض عام ١٨٩٦، سعى الشيخ مبارك إلى توسيع نفوذ الكويت في المناطق الداخلية بالجزيرة العربية. ولأن الاتفاقية ضمنت له الحماية التي كان يبغيها، شارك الشيخ مبارك في حملات مع ضيوفه السعوديين ضد ابن الرشيد شيخ حائل الذي كانت له صلات بالعثمانيين ويوسف الابراهيم. وعندما حلت الكارثة في معركة صريف بشمال نجد عام ١٩٠١، وواجهت الكويت خطر الغزو على يد كل من الأتراك وآل الرشيد، تم صد هذين الخطرين بفضل تدخل السفن الحربية البريطانية. وعندئذ اكتشفت تركيا أمر الاتفاقية السرية بين بريطانيا والشيخ مبارك، وجرى تبادل الرسائل بين تركيا وبريطانيا وعرفت باسم "تفاهم الوضع القائم" الذي أقر فيه كل منهما بمصلحة الآخر في الكويت. وأعقب ذلك قيام الأمير عبد العزيز بن سعود الشاب بقلب الأوضاع ضد حائل في يناير ١٩٠٢ عندما شن هجمته

الجريئة ضد الرياض واستعاد عاصمة آل سعود القديمة. وفيما بعد من نفس العام قام يوسف الابراهيم بالهجوم على الكويت عن طريق البحر، إلا أن البريطانيين صدوه عنها وطاردوه.

خلال الفترة من عام ١٩٠٠ إلى عام ١٩٠٣ انضمت روسيا إلى فرنسا في تحدي الهيمنة البريطانية على الخليج، وقامت سفن حربية روسية بسلسلة من الزيارات إلى الكويت. وقد كان اللورد كيرزون (Curzon)، نائب الملك في الهند في الفترة ١٨٩٩-١٩٠٥، مدافعاً متحمساً ضد المنافسة النامية من القوى الأخرى في الخليج، ولكن تعين عليه تحقيق التوازن بين ذلك النهج وبين ضرورة تجنب إثارة المخاوف التركية. وقد هدفت جولة كيرزون في الخليج عام ١٩٠٣ إلى تعزيز النفوذ البريطاني لدى حكام الساحل العربي عن طريق طمأنتهم إلى أن مصالحهم ستتحقق عن طريق الحفاظ على استقلالهم في ظل الحماية البريطانية الخيرة. ونتيجة لذلك، ولأول مرة، تم تعيين معتمد سياسي بريطاني في الكويت عام ١٩٠٤، وكان يدعى نوكس (Knox). وقد تعين عليه دائماً مراعاة التوازن بين تعزيز المصالح البريطانية والحفاظ على الوضع القائم مع العثمانيين.

شهدت السنوات القليلة السابقة لاندلاع الحرب بين بريطانيا وألمانيا عام ١٩١٤ زيادة في عمق التورط البريطاني في الشؤون الداخلية للإمارات المطلة على الخليج. وقد أحجمت المخططات الروسية في الخليج عام ١٩٠٣ عندما اشتد التوتر في الشرق الأقصى وأدى إلى اندلاع الحرب الروسية اليابانية. كما انتهت المرامي الفرنسية العدوانية في عام ١٩٠٤ إثر توصلها إلى "الوفاق الودي" مع بريطانيا. أما التهديدات الألمانية والعثمانية لدائرة النفوذ الحصرية البريطانية في الخليج فقد تواصلت ولم تتلاشى إلا في عام ١٩١٨ مع انتهاء الحرب العالمية الأولى.

خلال الفترة السابقة لاندلاع الحرب عام ١٩١٤، تعمقت العلاقة الكويتية البريطانية مع التوصل إلى اتفاقيات جديدة: لحظر تجارة السلاح (١٩٠٠) وإنشاء مكتب بريد (١٩٠٤) وعدم الموافقة على امتيازات لاستخراج اللؤلؤ أو الإسفنج دون الحصول على إذن مسبق من المقيم السياسي البريطاني (١٩١١). وفي عام ١٩١٢ وافق الشيخ مبارك على إقامة محطة للتلغراف، وفي عام ١٩١٣ تعهد بأن يعرض على الأميرال سلايد (Slade) "مكان وجود البيتومين في البرقان"، وألا يمنح أي امتياز نفطي إلا بموافقة بريطانيا. وأهم ما في الأمر هو أن الشيخ مبارك وافق سرياً مع نوكس على أن يؤجر للبريطانيين رقعة أرض في الشويخ كانت تشكل الموقع البديهي للمحطة النهائية لخط السكة الحديد المفضي إلى الخليج. وكذلك وافق على عدم تأجير أي من أراضي الكويت لأي جهة أجنبية أخرى مهما كانت. وبذلك حازت بريطانيا سلطة استعمال الفيتو ضد مشروع مد الخط الحديدي الى الكويت. كما أنه إذا تقرر المضي قدماً في إنشاء الخط فإن بريطانيا تكون قد امتلكت ورقة مقايضة ثمينة تستغلها في سعيها للحصول على حصة رئيسية في المشروع الذي كانت المفاوضات لا تزال جارية بشأنه آنذاك.

في عام ١٩٠٣، بعد مغادرة كيرزون للكويت، سارع الشيخ مبارك إلى طمأنة الحكومة العثمانية إلى إخلاصه الدائم لها، وتوقفت تركيا عن سعيها لفرض حكمها المباشر على الكويت. وقد حرص الشيخ مبارك على عدم التباهي باستقلاله، حيث احتفظ بلقب قائمقام وواصل رفع العلم التركي على قصره. كما أثبت أنه قادر على استقبال الأتراك بحفاوة تضاهي الترحاب الذي استقبل به ممثلي أي من القوى الأخرى. وقد كتب باركلاي رونتكير عن الاستقبال العظيم الذي حفاهم به عام ١٩١٢ حين ذهبوا إلى الكويت لمنحه وسام المجيدية. وفي ذات الوقت انتعشت أحوال الشيخ مبارك في ظل الحماية البريطانية، فازدهرت التجارة وقام بتوسيع قصر السيف المطل على الشاطئ على النمط العراقي باستخدام الطوب المحروق، كما قام بتعزيز حرسه الخاص وشراء يخت بخاري وزاد الضرائب التي يفرضها على التجار الكويتيين. وفي الوقت نفسه عمد إلى تطوير صداقة متينة مع الشيخ خزعل حاكم المحمرة، الذي شيد لنفسه قصراً في الكويت.

وصول الكاميرا

شهدت السنوات المبكرة لعهد الشيخ مبارك وصول الكاميرا إلى الكويت. وبحلول الوقت الذي التقطت فيه أولى الصور الفوتوغرافية في الكويت عام ١٩٠٠، كان التصوير الفوتوغرافي قد ناهز الستين من العمر، حيث كانت أول عملية ناجحة لإنتاج الصور الفوتوغرافية قد أعلنها عام ١٨٣٩ الفرنسي داغير (Jacques Mandé Daguerre) إلا أن توفر هذه التكنولوجيا الجديدة على نطاق واسع استغرق نصف قرن إضافي من التجارب والبحوث.

مقابل: الشيخ مبارك يجلس في وسط مجموعة من آل الصباح وآل سعود على شرفة دار المعتمد السياسي البريطاني بالكويت. ويظهر في الصورة الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود (كان آنذاك أمير الرياض) جالساً عن يمين الشيخ مبارك، في حين يقف بينهما شقيقه سعد بن عبد الرحمن آل سعود. وقد التقطت هذه الصورة في شهر مارس عام ١٩١٠ إبان زيارة قام بها السعوديون إلى الكويت للانضمام إلى حملة في شمال نجد. وفي هذه المناسبة التقى الكابتن شكسبير لأول مرة بالأمير عبد العزيز بن سعود الذي أسس فيما بعد المملكة العربية السعودية وصار أول ملوكها. شكسبير، ١٩١٠



وقد كان التصوير الفوتوغرافي في أيامه المبكرة نشاطاً جاداً ومكلفاً، وظل محصوراً على الطبقات الاجتماعية المتوسطة التي بدأت في البروز في المجتمعات الصناعية بأوروبا والولايات المتحدة. أما في المجتمعات الأخرى فكانت أحوال التصوير الفوتوغرافي تعكس غياب هذه الطبقة المتوسطة الكبيرة وما ملكته من ثروة. فعلى سبيل المثال جرت في روسيا بعض التجارب على العمليات الفوتوغرافية المبكرة، حيث تابعت أكاديمية العلوم بسانت بطرسبرغ عن كثب التطورات المحرزة في بريطانيا وفرنسا. ولكن بصفة عامة لم تتمكن مهنة التصوير الفوتوغرافي من الانتشار في روسيا إلا بعد مضي ٤٠ عاماً على نشأتها الأولى

وقد تميز الأوروبيون الذين شهدوا ميلاد التصوير الفوتوغرافي بروح المغامرة، وسرعان ما حملوا الكاميرا في أسفارهم إلى كافة أرجاء العالم. ومن المعروف أن حوالي اربعين مصوراً أوربياً زاروا الشرق الأوسط قبل عام ١٨٨٠، كما ذهب غيرهم إلى الهند والشرق الأقصى، حيث سافروا على الطرق التي ربطت ارجاء الإمبراطوريات الأوروبية وعملوا على تسجيل توسعاتها الجديدة. وعادة ما كانت المعدات التي حملوها معهم في تلك الأيام الريادية الأولى عظيمة الحجم. فعلى سبيل المثال اضطر المصور الإنجليزي صامويل بورن (Samuel Bourne) إلى الاستعانة باثنين وأربعين حمالاً لنقل الكاميرتين الخشبيتين الكبيرتين و٦٥٠ لوح نيجاتيف زجاجي وصندوقين من المواد الكيميائية الفوتوغرافية وخيمتين خلال إحدى رحلات التصوير التي قام بها في الهند، وبالتالي احتاج بورن إلى الدعم الكامل من الحكومة الهندية لتنفيذ هذا المشروع الضخم.

وفي ضوء ذلك ليس من المدهش أنه لم تلتقط أي صور فوتوغرافية في الكويت خلال المراحل المبكرة للتصوير الفوتوغرافي فطرق مواصلات الإمبراطوريات الغربية لم تمر بالكويت، ولا كان فيها وجود رسمي للعثمانيين الذين كانوا منذ عقد الثمانينيات من القرن الماضي يستخدمون التصوير الفوتوغرافي لتسجيل أراضيهم وتخليد إنجازاتهم.

ثم بدأت هذه الأوضاع تتغير مع نهاية القرن التاسع عشر فمع اشتداد ضعف الإمبراطورية العثمانية وفتح الفرص الجديدة أمام القوى الإمبراطورية الأوروبية مثل بريطانيا وفرنسا وألمانيا وروسيا، زاد الاهتمام بالخليج العربي والامارات القائمة على سواحله، وصارت الكويت بصفة خاصة محلاً للاهتمام بفضل مينائها الطبيعي الممتاز وموقعها الاستراتيجي الحيوي

وقد تزامنت هذه التغيرات مع اثنين من أهم التطورات في تكنولوجيا التصوير الفوتوغرافي، كان أولهما عملية اللوح الجيلاتيني الجاف التي أعلن عنها مادوكس (R.L. Maddox) لأول مرة عام ١٨٧١، حيث تميز



يسار الشيخ مبارك حاكم الكويت
(يسار) مع صديقه الحميم الشيخ
خزعل، شيخ المحمرة
إيه.آن غولدسميث، ١٩٠٧-١٩٠٩

المزيج الجديد الذي اخترعه على المزيج السابق بأنه كان يدوم لبعض الوقت بعد وضعه على اللوح الزجاجي، وبذلك غدا بالمقدور تصنيع ألواح النيجاتيف الفوتوغرافية تجارياً. وبحلول عام ١٨٨٠ توفرت عدة ماركات منها في الأسواق. كما توفرت كذلك العديد من الكاميرات الأصغر والأرخص، ونتيجة لذلك بدأت دوائر مستخدمي التصوير الفوتوغرافي تتسع وصارت الكاميرات تتجاوز حدود طرق المواصلات الإمبراطورية الآمنة. وبعد ذلك بعشرة أعوام تسارعت وتيرة التقدم مع حدوث التطور الثاني الهام في تكنولوجيا التصوير عندما طرح جورج إيستمان الكاميرا كوداك في الأسواق التي كانت تعتمد على الفيلم الملفوف الجديد الذي كان قفزة ثورية مكنت المصورين من التقاط سلسلة من الصور دون الاضطرار إلى تعبئة لوح نيجاتيف جديد لكل صورة، وبفضله أصبح التصوير الفوتوغرافي في متناول الجميع.

ولا غرابة في أن المصورين الأوائل في الكويت كانوا ينتمون إلى القوى الامبراطورية الأربع المذكورة أعلاه - بريطانيا وفرنسا وألمانيا وروسيا - حيث وصلوا إلى الكويت الواحد تلو الآخر مع بداية القرن العشرين. كان الفرنسيون هم السباقون، حيث تشير السجلات البريطانية إلى أن السفينة الفرنسية المسماة دروم (Drôme) زارت الكويت يوم ٢٤ أكتوبر عام ١٩٠٠، ونزل ربانها إلى البر حيث استقبله الشيخ جابر. وتقول التقارير أن أحد ضباط السفينة التقط الصور الفوتوغرافية. ولكن هذه الصور للأسف لم تخرج إلى النور حتى اليوم، وربما تكون قد فقدت إلى الأبد.

وما كاد يمر عام واحد على ذلك حتى كان الطراد الروسي فارياج (Varyag) وهو في طريقه إلى الصين قد توقف في الكويت في إطار جولة على الموانئ الواقعة على جانبي الخليج. وكان على متن السفينة فارياج جهازي كاميرا على الأقل استخدما في التقاط الصور بكل مرفأ توقفت فيه، وانتهى الأمر بكل هذه الصور في الأرشيفات الهائلة المحفوظة في القيادة العامة المركزية للقوات البحرية في مدينة سانت بطرسبرغ، وهناك بقيت إلى يومنا هذا. كما أن بوغويفلنسكي (Bogoyavleasky)، وهو أحد المتخصصين الروس في علم الحيوان، زار الكويت عام ١٩٠٢، وكذلك توقف الطراد الروسي بويارين (Boyarin) بالكويت في شهر فبراير ١٩٠٣، حيث التقط رجاله المزيد من الصور وإن كانت هذه قد اختفت ولم يكتشف أحد مكانها بعد.

أما المصوران التاليان اللذان سجل التاريخ صورهما، وهما ويغام (H.J. Whigham) واللورد كيرزون، فكانا بريطانيي الجنسية. وكان ويغام مثله مثل اللورد كيرزون يؤيد بشدة قيام بريطانيا برد قوي على الطموحات الروسية في منطقة الخليج العربي. وقد سافر ويغام بصحبة المقيم السياسي البريطاني في الخليج، اللفتاننت-كولونيل كمبل، في زيارة قام بها للكويت في إطار جولته الشتوية المعتادة في أنحاء الخليج في موسم ١٩٠٢-١٩٠٣. وظهرت صورة ممتازة للشيخ مبارك وابنه الشيخ جابر في كتاب ويغام المعنون "المشكلة الفارسية" والمنشور عام ١٩٠٣. وبعد تلك الزيارة جاءت جولة اللورد كيرزون الشهيرة عام ١٩٠٣.

أما الدور الألماني في تاريخ التصوير المبكر بالكويت فقد كان يمثلها هيرمان بورخاردت (Hermann Burchardt)، الذي وصل إلى الكويت في ديسمبر ١٩٠٣ في أعقاب زيارة كيرزون مباشرة، بحجة متابعة بعض الدراسات في علم الإثنوغرافيا، وليس من المعروف إن كان يكتم أهدافاً أخرى، خاصة وأن ألمانيا كانت مهتمة بتوسيع مصالحها التجارية في منطقة الخليج العربي خلال تلك الفترة. وبالتالي يوجد احتمال قوي بأن الدوائر الألمانية الرسمية انتفعت بما جمعه بورخاردت من معلومات خلال أسفاره في أرجاء المنطقة.

وكما رأينا، فإن هذه الطفرة المفاجئة في الاهتمام الدولي لم تدم طويلاً، حيث عادت بريطانيا إلى فرض سيادتها مرة أخرى على الخليج. واليوم نجد أن القسم الأعظم من السجل الفوتوغرافي للكويت حتى نهاية الحرب العالمية الأولى محفوظ في أرشيفات البحرية البريطانية وفي مجموعات الصور الخاصة بالمسؤولين البريطانيين - وذلك مع وجود بضعة استثناءات بارزة، كالرحالة الدنمركي رونكيير الذي زار الكويت عام ١٩١٢، وأعضاء الإرسالية التبشيرية التابعين للكنيسة الإصلاحية الأمريكية الذين زاروها بعد ذلك العام. ولا شك أن بعضاً من أروع صور الكويت على الإطلاق هي تلك التي التقطها في تلك الحقبة الكابتن وليام شكسبير الذي شغل منصب المندوب السياسي البريطاني في الكويت خلال الفترة الممتدة من عام ١٩٠٩ إلى عام ١٩١٤.

الحرب العالمية الأولى وما تلاها

إن التورط البريطاني المتعمق في شؤون الكويت، إضافة إلى مشروع سكة



الشيخ مبارك وضباط الطراد الروسي فارياج في شهر ديسمبر ١٩٠١، وقد التقط أحد أفراد الطاقم هذه الصورة.

يسار: الشيخ مبارك (جالساً) مع أبناء أسرته وحاشيته، ومن ضمنهم ابنه الشيخ جابر (يسار) الذي لعب دوراً بارزاً في استقبال الزوار الأجانب بالكويت ثم خلف أباه في الحكم عام ١٩١٥

إتش جاي. ويتام، ١٩٠٢-١٩٠٣

حديد بغداد والوجود العثماني في الأحساء، كانت جميعها عوامل جعلت إقامة علاقات الثقة بين بريطانيا وتركيا أمراً متزايد الصعوبة. وقد بذلت الجهود لتحديد دوائر نفوذ هاتين الإمبراطوريتين في شبه الجزيرة العربية، وكانت ثمرتها الاتفاقية الأنجلوعثمانية المبرمة عام ١٩١٣. لقد سعت هذه الاتفاقية إلى تنظيم تفاهم الوضع القائم الذي توصلا إليه عام ١٩٠١ بشأن الكويت. وكذلك هدفت إلى ترسيم نطاق النفوذ البريطاني والتركي في الجزيرة العربية. واشتملت الاتفاقية على منح شيخ الكويت السيطرة الكاملة على المنطقة الواقعة داخل "الخط الأحمر" الموضح على الخريطة المنشورة على الصفحة ١٩، بما في ذلك الجزر. إضافة إلى ذلك، فإن القبائل الواقعة داخل منطقة أوسع كثيراً، تحددت بـ "الخط الأخضر"، اعتبرت خاضعة لسيادة شيخ الكويت. وفي نفس الوقت تم الاعتراف بالكويت باعتبارها "قضاء مستقل داخل الإمبراطورية العثمانية"، حيث يمارس الشيخ مبارك سلطته دون أي تدخل عثماني، وحصل الأتراك من ناحيتهم على حق تعيين وكيل يمثل مصالحهم في الكويت، وهو ما واجه استياء شديداً من الشيخ مبارك.

ورغم هذا الشرط لم يتم أبداً تعيين وكيل عثماني في الكويت، فقد كان النفوذ العثماني في شرق الجزيرة العربية يعيش مرحلة اضمحلال. وفي مايو ١٩١٣ طرد الأمير عبد العزيز بن سعود الأتراك من الأحساء، بل أن الاتفاقية لم تحصل على التصديق الرسمي نتيجة اندلاع الحرب بين بريطانيا وألمانيا عام ١٩١٤، ودخول تركيا الحرب على الجانب الألماني. ومنذ ذلك الحين عملت بريطانيا على اكتساب تأييد حكام الجزيرة العربية ضد الأتراك. فصدر إعلان بأن الكويت أصبحت بوضوح لا لبس فيه إمارة مستقلة تحظى بحماية بريطانيا العظمى. واعترافاً بهذا الوضع الجديد تلقت الكويت زيارة جديدة من حاكم الهند البريطاني اللورد هاردينغ (Hardinge) عام ١٩١٥.

ساهم الشيخ مبارك حتى وفاته عام ١٩١٦ في المجهود الحربي البريطاني مع بدأ العمليات الهادفة إلى غزو العراق عن طريق البحر بواسطة قوات عرفت باسم قوة الحملة الهندية (د). وقد حقق تجار الكويت مكاسب جيدة من تجارة الأمدادات المرسلة إلى البصرة، واستمروا في تحقيق هذه المكاسب خلال فترة حكم الشيخ جابر بن مبارك القصيرة (١٩١٥-١٩١٧)، إلا أن هذا الازدهار تقلص بعض الشيء بسبب الإجراءات التي اتخذتها بريطانيا لمنعهم من ممارسة التجارة أيضاً مع قبائل شمال ووسط الجزيرة العربية حيث كانت هذه التجارة تساعد الأتراك. وقد تسبب هذا الحصار في مشاكل للتجار رغم أن لا الشيخ جابر ولا خليفته الشيخ سالم أيداه بالكامل. حيث تواصلت تجارة الامدادات الأساسية. وجاء الفرج عندما أنهت بريطانيا الحصار في عام ١٩١٩ بعد أن وضعت الحرب أوزارها.

عندما تولى الشيخ جابر الحكم في التاسع عشر من نوفمبر ١٩١٦، أقيم احتفال بالمناسبة حضره السير بيرسي كوكس (Sir Percy Cox) والأمير عبد العزيز بن سعود، وكانا قد وصلا على متن السفينة جونو (Juno) التابعة للبحرية البريطانية، وكذلك حضر الاحتفال الشيخ خزعل حاكم



المحمرة، وغيره من الشخصيات الرفيعة. وقد تعهد الحكام الثلاثة بالتعاون مع بريطانيا، وخرجوا من الحفل وقد تقلدوا بمختلف أوسمة امبراطورية الهند. كما احتفل أيضاً بتولي الشيخ سالم زمام السلطة بإقامة حفل في الكويت في السادس عشر من مارس ١٩١٧، وفيه قدمت إلى الشيخ سالم وثيقة رسمية من الحاكم البريطاني بالهند يعترف فيها بمنزلة الشيخ.

حكم الشيخ سالم خلال الفترة من عام ١٩١٧ إلى عام ١٩٢١. وفي فترة مرت فيها الكويت بأوقات عصيبة. وقد عرف الشيخ سالم بالتقوى

والورع وبالحزم في تطبيق قواعد السلوك الصارمة على أبناء مدينة الكويت ولكن البريطانيون لم يثقوا فيه فيما يتعلق بالحصار. كما كانت هناك خلافات بينه وبين الأمير ابن سعود، وعندما بدأت الحملات لإقامة المملكة العربية السعودية التي نعرفها اليوم مرة أخرى عند نهاية



الحرب العالمية الأولى، وجدت الكويت نفسها هدفاً للإخوان، وهم أبناء القبائل المستقرة والمتميزون بالحماسة البالغة التي جعلت منهم قوة مقاتلة يحسب لها ألف حساب في أرجاء الجزيرة العربية. وفي عام ١٩٢٠ دخل الإخوان أراضي ادعت الكويت السيادة عليها بموجب بنود الاتفاقية الأنجلوعثمانية لسنة ١٩١٣، وكان اثر ذلك أن سارع الكويتيون بإقامة سور يحمي بلدتهم، وصار فيما بعد من المعالم المألوفة في الصور الفوتوغرافية. وقاد الشيخ سالم بنفسه قوة إلى الجهراء حيث صد الكويتيون عدة هجمات شنها الإخوان على القصر الأحمر. وفيما بعد خلال نفس السنة بدا وكأن الهجوم المسجد على الكويت صار وشيكاً. فطلب الشيخ سالم من البريطانيين تقديم المساعدة. وكان لظهورهم على الساحة مسلحين بالسفن الحربية والطائرات والسيارات المدرعة الفضل في انسحاب الإخوان في نهاية الأمر. ثم خفت حدة التوتر بين الكويت والأمير ابن سعود بوفاة الشيخ سالم عام ١٩٢١ وتولي ابن شقيقه الشيخ أحمد الجابر مقاليد حكم البلاد. وهكذا مرت بسلام أزمة مصيرية أخرى في تاريخ الكويت دون أن ينجم عنها ضرر دائم.

عهد الشيخ أحمد الجابر، ١٩٢١-١٩٥٠

بعد هزيمة ألمانيا وانهيار الامبراطورية العثمانية في نهاية الحرب العالمية الأولى، وصلت بريطانيا خلال عشرينيات القرن الحالي إلى أوج قوتها في الشرق الأوسط. وجاء الانتداب الذي منحته عصبة الأمم لبريطانيا على فلسطين والعراق بمثابة اعتراف دولي بقوة بريطانيا في المنطقة. وهي قوة تجلت أيضاً في قدرة بريطانيا على إعلان قيام إمارة شرق الأردن عام ١٩٢١ وإقامة الحكم الملكي في العراق خلال العام نفسه.

أما في الخليج فلم تعد بريطانيا تواجه أي تحديات من القوى التي نافستها قبل الحرب العالمية الأولى، كما أن احتمالات اكتشاف النفط فتحت أمام بريطانيا لأول مرة فرصة التمتع بمصالح اقتصادية مباشرة في المنطقة. وفي إطار ذلك صار ترسيم حدود الدول الجديدة في العراق والكويت ونجد (التي صارت المملكة العربية السعودية بعد عام ١٩٣٢) ضرورة ملحة، ويعود ذلك جزئياً إلى ضرورة توفير الاستقرار للنظام الإقليمي الجديد. كما يعود بصفة خاصة إلى ضرورة تحديد وتقرير الدولة أو الجهة التي لها السيادة على مناطق الامتيازات التي جرى تأجيرها إلى شركات التنقيب عن النفط حين برز ونمى اهتمامها بمنطقة شرق الجزيرة العربية.

ترأس السير بيرسي كوكس بأسلوبه الوقور المعتاد المفاوضات حول حدود الكويت الجنوبية، وقد ظهر عدد كبير من التقارير والروايات حول المؤتمر المشهور الذي انعقد في ميناء العقير بمنطقة الأحساء عام

يمين: خريطة توضح حدود الكويت والأراضي المجاورة شكلت جزءاً من الاتفاقية الأنجلوعثمانية لعام ١٩١٣ والتي لم يتم التصديق عليها



الشيخ سالم هو الثاني من اليمين في هذه المجموعة. ومن المرجح أن الرجل الأوروبي المنحني إلى يمينه هو المعتمد السياسي البريطاني بالكويت، ويحده الشيخ خزعل، شيخ المحمرة، واحد كبار ضباط البحرية البريطانية. والتاريخ المحدد لهذه الصورة مجهول، وكذلك مكانها ومناسبتها، إلا أنها التقطت على الأرجح في عهد الشيخ سالم، في الفترة ١٩١٧-١٩٢١.

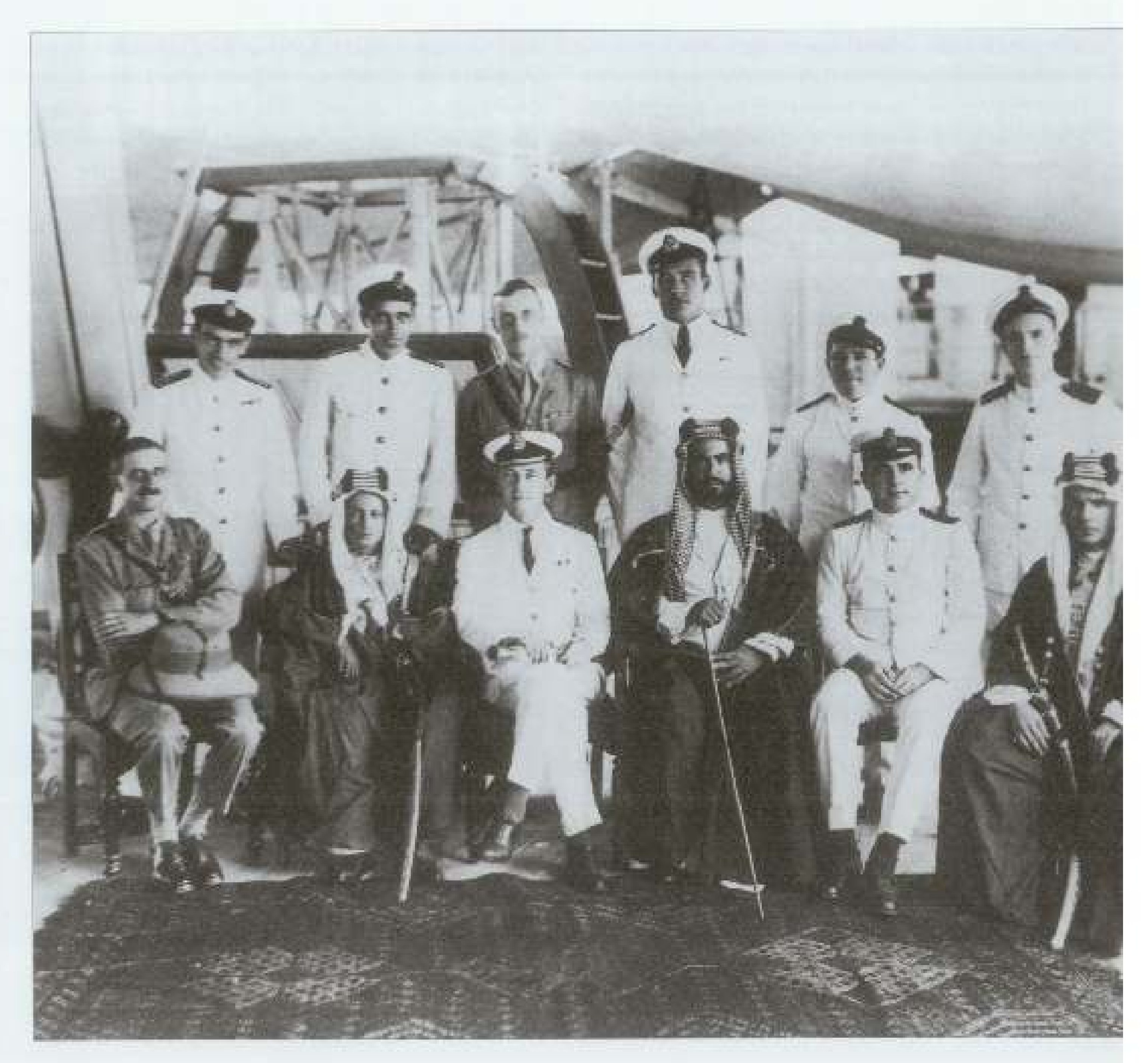
١٩٢٢ بين كوكس والأمير عبد العزيز بن سعود، وأفضى إلى قيام كوكس بمنح الأمير ابن سعود رقعة كبيرة من الأراضي الواقعة داخل حدود "الخط الأخضر" والتي كانت القبائل القاطنة بها تعتبر في عام ١٩١٣ تحت سيادة الشيخ مبارك. وبطبيعة الحال شعر الشيخ أحمد الجابر الذي كان قد خلف عمه الشيخ سالم عام ١٩٢١ بالتظلم من هذا الاتفاق، ولكنه اضطر إلى قبول الأمر الواقع الذي لا مناص منه. وكما قال كوكس، فإنه لو لم يكن قد تنازل عن الأراضي المعنية لتمكن الأمير ابن سعود أن يأخذها بنفسه بسهولة. لقد كانت هذه هي مقتضيات السياسة الواقعية، ونتيجة لها اتخذت الكويت شكلها الذي تظهر به على الخرائط حتى يومنا هذا.

كان من بين الذين حضروا مؤتمر العقير عام ١٩٢٢ الميجور فرانك هولمز (Frank Holmes)، مهندس التعدين المتحمس الذي لا يزال يعرف في منطقة الخليج باسم "أبو النفط". وبعد المؤتمر بفترة وجيزة تفاوض فرانك هولمز مع الأمير ابن سعود على امتياز الأحساء الذي أعطى النقابة الشرقية والعامة (وهي شركة مقرها في لندن) حق التنقيب عن النفط في معظم المنطقة المعروفة اليوم باسم المنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية. وكانت نتيجة لنجاح هولمز في الحصول على الامتيازات أن جاء الجيولوجي أرنولد هايمز (Arnold Heims) إلى الكويت عام ١٩٢٤ لإجراء عمليات الاستكشاف المبدئية في أراضي الكويت والأحساء والبحرين بحثاً عن النفط. والتقط خلال زيارته هذه عدداً من الصور الفوتوغرافية الممتازة التي اشتهر بها.

وخلال عقد العشرينيات أيضاً واصلت شركة النفط الأنجلوفارسية (وقد تحول اسمها فيما بعد إلى بريتيش بتروليوم) أنشطة التنقيب بعد أن كانت تنتج النفط بكميات تجارية قبل الحرب في مسجد السليمان. وكان أرنولد ولسون (Arnold Wilson) -الذي خدم تحت رئاسة كوكس وشغل لبعض الوقت منصب المفوض المدني في العراق- يحتل منذ عام ١٩٢٣ منصب المدير العام لشركة أبوك في المحمرة/عبدان. وزار الكويت ذلك العام لتقديم مقترحات امتياز أبوك إلى الشيخ أحمد في منافسة مع مقترحات هولمز. لقد كان ولسون رجلاً حظيت همته وقدراته التنظيمية بشهرة أسطورية. وسجل رحلاته باستخدام كاميرا لالتقاط الصور السريعة. ومما يؤسف له أنه إذا كان يتميز بالموهبة الفنية فلا يمكن الاستدلال عليها من صور الكويت القليلة التي التقطها ولا تزال موجودة إلى اليوم، بل تبدو هذه الصور خشنة إذا قورنت بالصور التي التقطها أرنولد هايمز.

لم يكتب لمبادرات شركات النفط المبكرة تجاه الكويت أن تصل إلى نتائج فورية، بل دامت المفاوضات البطيئة حول الامتيازات حتى عام ١٩٣٤. أما أهم التطورات التاريخية في عشرينيات هذا القرن فكانت تتعلق بالعلاقات مع الأمير عبد العزيز بن سعود، الذي غدا سلطان نجد وملحقاتها، وكذلك العلاقات مع الأخوان.

كانت الرسوم الجمركية في الكويت هي لب المشكلة. فابن سعود طالب بأن تدفع له الرسوم على البضائع التي يشتريها بدو نجد في حالة مرور هذه البضائع عبر الكويت قبل دخول أراضيه. وفي انتظار تسوية



الشيخ أحمد الجابر، الذي حكم الكويت
فيما بعد، يجلس بين ضابطي بحرية
بريطانيين. وتتضمن هذه المجموعة
على متن السفينة لورنس، الأمير
فيصل، أحد أبناء الملك عبد العزيز بن
سعود، وهو هنا في سن الرابعة عشر
(الثاني من اليسار) وقد صار فيما بعد
عاهل المملكة العربية السعودية
وعلى أقصى يمين الصورة يجلس
مستشار الأمير فيصل، أحمد بن ثنيان
آل سعود، وعلى اليسار يجلس
المسؤول البريطاني همفري بومان
وهذه المجموعة تألفت منها بعثة نجد
والكويت لعام ١٩١٩، والتي نظمتها
بريطانيا بعد نهاية الحرب العالمية
الأولى على سبيل البرهنة على حسن
نواياها تجاه حلفائها خلال الحرب،
وكذلك لضرورة مناقشة شؤون شبه
الجزيرة العربية وبصفة خاصة مسألة
الإخوان
فرنون وشركاه، بومباي، ١٩١٩

المسألة فرض الأمير ابن سعود عام ١٩٢٣ حظراً على التجارة بين البلدين، وعجزت المفاوضات عن حل المشكلة وظل الحظر مطبقاً إلى أن نجح البريطانيون في إزالته في نهاية المطاف عام ١٩٣٧ ومن الطبيعي أن الحظر أدى إلى تعرض الكويت لمصاعب شديدة. واشتد البلاء على البلاد مع حلول الكساد العالمي الكبير عام ١٩٢٩ وكذلك الكساد الذي ألم بتجارة اللؤلؤ في الثلاثينيات بعد تطوير اللؤلؤ الصناعي في اليابان

الميجور فرانك هولمز يواجه الكاميرا في هذه اللقطة لبعثة شيمز وهي تتأهب لمغادرة الكويت في الثامن والعشرين من إبريل ١٩٢٤ مايمن ١٩٢٤

يضاف إلى ذلك أن ثورة الإخوان في الأعوام ١٩٢٧-١٩٣٠ شكلت خطورة على الكويت بمقدار خطورتها على الدولة السعودية الناشئة. فالاخوان اعتبروا أن الحدود الجديدة التي توصلت إليها المفاوضات هي اخلال بحرية البدو التقليدية للتجوال سعياً وراء المرعى، كما اعترضوا على القيود الجغرافية التي فرضت على نطاق غاراتهم. والتهديد الذي تعرضت له الكويت في اطار هذه الأحداث ادى إلى تدخل بريطانيا عام ١٩٢٨ حين لعبت سفينة البحرية الملكية إمرالد (Emerald) الدور المفصل أثناءه. ولم يتجاوب الشيخ أحمد مع مبادرات قادة الاخوان الذين اعتزموا اقامة دولة مستقلة في شمال الجزيرة العربية. وفي النهاية تم حل الأزمة حين قام الملك عبد العزيز بقمع حركة الإخوان عسكرياً – وهو حل مهد الطريق أمام اعلان قيام المملكة العربية السعودية عام ١٩٣٢.

وإذا كانت الثلاثينيات تعتبر حقبة فقر وحاجة، فانها على الأقل لم تشهد تهديدات خارجية. كما ظهرت فيها بوادر لتطورات اقتصادية ايجابية ألا وهي الطريق الجوي الجديد واكتشاف النفط. فالطريق الجوي الذي أقامته بريطانيا إلى الهند عمّق الاهتمام البريطاني بأمن الكويت. كما نتجت أولى الصور الجوية في المنطقة أثناء البحث عن أفضل طريق اقتصادي وأحسن مواقع للهبوط. في عام ١٩٢٧ كان البريطانيون قد بدءوا بمحاولة لإقامة طريق يمر عبر الجانب العربي للخليج، مع التوقف في الكويت والبحرين وأبوظبي ومنطقة صحار. ثم قرروا أنه ينطوي على مخاطر بالغة بسبب الاضطرابات في المناطق الداخلية المتاخمة للساحل المتصالح، فتم الاتفاق على مسار جديد في عام ١٩٢٩ يمر بمحاذاة الجانب الايراني للخليج. الا أنهم اضطروا إلى التخلي عن هذا الطريق بدوره عام ١٩٣١ بسبب الرفض الايراني وابتداء من العام التالي شرعوا يستعملون طريقاً جديداً على الجانب العربي يمر بالكويت والبحرين والشارقة

أما بالنسبة للنفط، فانه رغم الفشل في اكتشافه خلال أوائل العشرينيات في شرق الجزيرة العربية ظل النفط على قائمة الاهتمامات في المنطقة، حيث اكتشف في شمال العراق عام ١٩٢٧ وفي البحرين عام ١٩٣٢. وكان الشيخ احمد متردداً في منح امتياز لنفط الكويت الى شركة بريطانية بسبب فقدان بعض الأراضي في مؤتمر العقير عام ١٩٢٢، ولكن الاتفاقيات السارية منعته من منح الامتياز دون موافقة بريطانية. وفي تلك الأثناء مارست الولايات المتحدة الضغوط على بريطانيا للسماح للشركات الأمريكية بالمنافسة وفقاً لسياسة الباب المفتوح التي سمحت لهم بالدخول إلى البحرين والمملكة العربية السعودية. وفي نهاية المطاف توصلت الأطراف إلى حل وسط قامت بمقتضاه عام ١٩٣٣ شركتان متنافستان وهما شركة النفط الانجلوفارسية أو هي شركة بريطانية ويمثلها تشيشولم (A.H.T. Chisholm) وشركة غلف أويل أوف

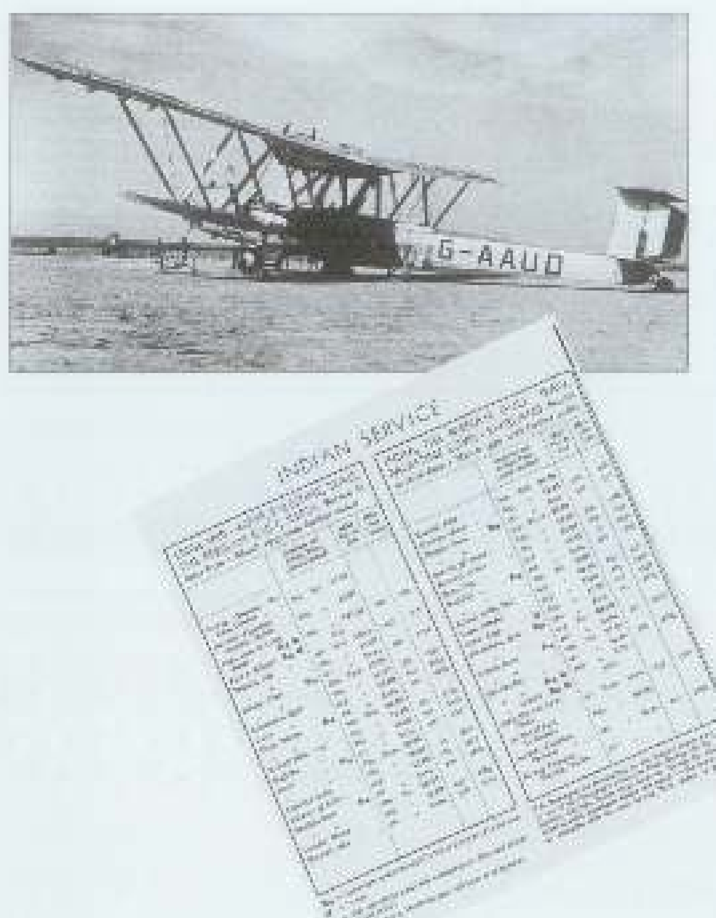
ببتسبرغ (وهي شركة أمريكية ويمثلها الميجور فرانك هولمز) بتشكيل شركة نفط الكويت مناصفة بينهما. وفي عام ١٩٣٤ منح الشيخ أحمد امتياز نفطي إلى هذه الشركة الجديدة. وبدأ التنقيب عن النفط عام ١٩٣٦ في بحرة على الجانب الشمالي من خليج الكويت، وهي منطقة كان هولمز قد تفقدها في عام ١٩٢٤. ولكن النتائج جاءت مخيبة للآمال، فتقرر محاولة البحث في جبل البرقان إلى الجنوب من مدينة الكويت، وهي منطقة كان هولمز قد زارها أيضا. إلا أن شركة نفط الكويت كانت أسعد حظا إذ أنها اكتشفت النفط هناك بكميات تجارية عام ١٩٣٨. ولكن العمل توقف قبل أن يبدأ الانتاج نتيجة اندلاع الحرب العالمية الثانية في العام التالي، ولم يتم تصدير أول شحنة نفط من الكويت إلا في عام ١٩٤٦.

في محاولة لاستعادة بعض من التوازن بين الوجهاء والحاكم الذي كان



قائما في القرن التاسع عشر، مارس بعض الشخصيات الكويتية البارزة في نهاية الثلاثينيات الضغوط على الشيخ أحمد ليتيح لهم دورا أكبر في الحكم، وكانت النتيجة تشكيل مجلس تشريعي منتخب في عام ١٩٣٨ بدعم من بريطانيا. وكذلك انتخاب الشيخ عبد الله السالم (وهو عبد الله الثالث الذي حكم في الفترة ١٩٥٠-١٩٦٥) رئيسا للمجلس. ولكن عمر المجلس كان قصيرا، حيث أن سعيه للعودة إلى سياسة الوفاق التقليدية التي حكمت الكويت في القرن الماضي كان تحديا للسلطات التي تجمعت في يد الحاكم منذ ذلك الحين. ولذلك قام الشيخ أحمد بإغلاق المجلس عام ١٩٣٨. وقد تسبب ذلك في اضطرابات أجج من نارها التوجه القومي العربي الذي وجد أقوى الصدى في نفوس العديد من الشباب الكويتي وغيرهم من العرب في تلك الفترة واتخذ صورة تأييد العراق. ولكن هؤلاء لم يحظوا بتأييد غالبية الكويتيين الذين كانوا يعتبرون آل الصباح حماتهم التقليديين ضد استغلال التجار والنواخذة. وبحلول منتصف عام ١٩٣٩ كان الشيخ أحمد قد فرض سيطرته الكاملة على البلاد.

تسببت الحرب العالمية الثانية في معاناة شديدة بالكويت وفي بقية بلدان الخليج. وقد تعين إغلاق الآبار الجديدة وتجميد أعمال قطاع النفط. كما أدى تعطل الاستيراد إلى نقص شديد في المواد الغذائية وتضخم الأسعار، مما دفع بالكثير من الكويتيين الى شفير المجاعة.



أقصى اليمين: يقف وسط هذه المجموعة كلا من الشيخ أحمد الجابر، حاكم الكويت، والميجور جلي سي مور المعتمد السياسي في الكويت في الفترة ١٩٢٠-١٩٢٩، وقد التقطت الصورة إبان حادثة السفينة أمرالد، في فبراير ١٩٢٨. ويظهر معهما في الصورة السيد حامد النقيب، وقبطان السفينة أمرالد وقائدها ونائبه. ويظهر على اليمين قسم من جيرالد دي غوري وهو يرتدي قبعة وكان آنذاك يقوم بمهام استخبارات واتصالات إبان أزمة الإخوان

يمين: طائرة ذات جناحين من طراز هندلي بيج، تابعة للخطوط الجوية الامبراطورية، أثناء توقفها في الكويت في مارس ١٩٣٤ وقد بدأت الرحلات المنتظمة بين كراتشي وبغداد عام ١٩٣٦ وبين كراتشي ولندن عام ١٩٣٣. وكانت الطائرات الثلاث التي تعمل على هذا الخط قد صارت مشهدا مألوفا أثناء الرحلة الأسبوعية، وقد عرفت بالأسماء هانيبال وهنغيست وهوريسا
(تموز ١٩٣٤)

جدول الرحلات من أرشيف الخطوط الجوية البريطانية



صورة جوية لمدينة الكويت التقطت يوم ١٢ أغسطس ١٩٢٦ وتظهر في الصورة بوضوح العلاقة بين الشاطئ والمدينة وسورها والمناطق المفتوحة داخل السور والصحراء وبحلول عقد العشرينيات كان تعداد سكان الكويت قد وصل إلى ٦٠ ألف نسمة، بما في ذلك جالية إيرانية كبيرة عاشت في حي خاص بها طيلة أجيال متعددة أما الجالية الأوروبية أثناء تولي ديكسون لمنصب المعتمد السياسي (١٩٢٩-١٩٣٥) فقد كان عددها أحد عشر شخصا المعتمد السياسي وطبيب دار الاعتماد وأسرتيهما ومجموعة صغيرة من أفراد الإرسالية التبشيرية الأمريكية

وخاصة من أبناء القبائل البدوية. ولم تبدأ مرحلة التحديث الحقيقي إلا في عام ١٩٤٦ بعد أن وضعت الحرب أوزارها وأعيد افتتاح آبار النفط وبدأت أولى عمليات تصدير النفط بكميات تجارية. وعندما توفي الشيخ أحمد عام ١٩٥٠ كانت الكويت قد ارتقت بسرعة مذهلة إلى مصاف أغنى بلدان العالم من حيث الدخل الوطني مقسماً على عدد السكان. ودخلت في عهد الشيخ عبد الله السالم مرحلة شهدت فيها نمواً وتطوراً متسارعين، وولت إلى غير رجعة طرق الحياة القديمة وما حف بها من معاناة.



باكورة التصوير الفوتوغرافي في الكويت

عندما بدأ عقد العشرينيات من القرن الحالي كان استخدام الكاميرات قد شاع في أوروبا وأمريكا. وزاد تعقيد وتكلفة الكاميرات التي استخدمها المصورون المحترفون والعلماء والباحثون ممن انطوى عملهم على جمع المعلومات المصورة، مثل سلاح الجو الملكي البريطاني، وشركات الطيران المدني الجديدة، وشركات النفط وعلماء الآثار وخبراء علم الإنسان. فسلاح الجو الملكي وشركات النفط مثلاً نفذوا دراسات مسحية واسعة بالتصوير الجوي في الشرق الأوسط خلال العشرينيات والثلاثينيات. وفي نفس الوقت انخفضت أسعار الكاميرات السهلة الاستعمال وارتفعت مبيعاتها خمسة أضعاف بين عامي ١٩١٤ و١٩٢٠، بل تواصل هذا الانتشار خلال سنوات الكساد العالمي الكبير في الثلاثينيات.

كما أن مجالات التصوير كانت في اتساع متزايد مع دخول استعمالاته الى مجالات جديدة. وخلال العشرينيات بدأ التصوير مرحلة جديدة مع توجه المصورون الى الاهتمام بالمسائل الاجتماعية والتسجيل العلمي المصور، وتعززت شهرة التصوير الفوتوغرافي جنباً الى جنب مع التقدم المحرز في تصميم الكاميرات. ففي عام ١٩٢٤ على سبيل المثال أنجز أوسكار بارناك (Oscar Barnack) بحوثه على الكاميرا الخفيفة طراز لايكا، والتي تضمنت وسائل للتحكم في مدة تعريض النيجاتيف للضوء، واستخدمت فيلم به ست وثلاثين صورة، واشتملت على عدسة لا بؤرية. وهذه الكاميرا الصغيرة المدمجة والبالغة التقدم قدمت للهواة والمحترفين على حد سواء مزيجاً من الجودة والعفوية لم يكن متوفراً من قبل للمصورين. وبفضل هذا النوع من الكاميرات شهدت حركة الصحافة الفوتوغرافية ازدهاراً واسعاً ولاقت المجلات المصورة رواجاً كبيراً.

وفي عقد الثلاثينيات تواصلت التوجهات التي رسخت في العقد السابق فسجلت مبيعات الكاميرات السهلة الاستخدام وأفلامها زيادة أخرى كبيرة، بينما على المستوى المحترف صارت العديد من الصحف توضح الأخبار والتقارير بالصور الفوتوغرافية. كما شهدت الثلاثينيات ظهور وانتشار المجلات المصورة من أمثال مجلة لايف الأمريكية ومجلة بيكتشار بوست البريطانية، وتحققت عدة ابتكارات فنية مثل التحكم الآلي في مدة تعرض الفيلم للضوء، ومولد مصباح الفلاش والتصوير الفوتوغرافي الملون.

وقد أثرت كافة هذه التطورات على تصميم الكاميرات المباعة الى الجمهور بعد الحرب العالمية الثانية، ومهدت الطريق أمام مرحلة التصوير الفوتوغرافي المعاصر. وفي الثلاثينيات أيضاً بدأ الرحالة والمستكشفون الاعتماد على كاميراتهم في تسجيل ما رأوه بقدر اعتمادهم على كتاباتهم. ومن حسن الحظ أن ثلاثة من مشاهيرهم زاروا الكويت في تلك الفترة، وهم فريا ستارك (Freya Stark) (١٩٣٢ و١٩٣٧)، وآلان فيليارز (١٩٣٩)، وويلفريد ثيسيغر (Wilfred Thesiger) (١٩٤٥ و١٩٤٩).

كانت أولى صادرات النفط عام ١٩٤٦ بداية ليس فقط لعملية التحديث السريع للكويت، ولكن أيضاً بداية النهاية لعصر التصوير الفوتوغرافي



أول منصة حفر في الكويت: البحرة رقم ١، عام ١٩٣٦

يمين: الشيخ أحمد الجابر يقف وسط مجموعة من الأشخاص عند منصة "البحرة" عام ١٩٣٦ ويظهر معه من اليسار إلى اليمين: هارولد ديكسون، جاي باتريك (المدير العام لشركة نفط الكويت)، ديفير (من شركة غلف أويل)، الميجور فرانك هولمز، آرشي سكوت (المراقب العام بشركة نفط الكويت)، الكابتن جيرالد دي غوري (المعتمد السياسي البريطاني)

جيرالد دي غوري، ١٩٣٦



أعلى: الشيخ أحمد الجابر الصباح يوم تقلده وسام إمبراطورية الهند برتبة الفارس القائد يوم ٢٨ نوفمبر ١٩٣٠ والذي منحته إياه بريطانيا تقديراً لجهوده إبان أزمة الإخوان. وقد قام الشيخ أحمد بأول زيارة له إلى لندن بصفته أمير الكويت عام ١٩٣٥ وفي عام ١٩٣٦ تبنى لقب "سمو الشيخ". كما منح وسام نجمة الهند برتبة الفارس القائد في مايو ١٩٤٦
ديكسون -١٩٣٠

أعلى يسار: سمو الشيخ أحمد الجابر يدير عجلة المحبس المكسوة بالفضة لبدء أول عملية تحميل للنفط المخصص للتصدير، وذلك في شهر يونيو ١٩٤٦. ونرى معه في الصورة من اليسار إلى اليمين: عبد الله ملا صالح، عزت جعفر، الشيخ عبد الله مبارك، سي. بي. ساوثويل، دي. إتش. كمبل
مصور شركة بريتيش بتروليوم

المبكر في المنطقة. إن مفهوم التصوير المبكر لمكان ما يبدو مفهوماً بسيطاً لأول وهلة. ولكن بعد إمعان الفكر فيه نجد أنه مفهوم معقد، فلب



معناه يبدو مع النظرة الأولى وكأنه يرتبط فقط بالتطور التقني للكاميرات المبكرة والنمو المبكر لطبقة من الهواة والمحترفين الذين مارسوا هذا الفن الناشئ. وفي حين أن أي تعريف للتصوير المبكر يتضمن بطبيعة الحال هذه العناصر إلا أنها وحدها لا تكفي. فمفهوم التصوير المبكر يشتمل أيضاً على طبيعة موضوع الصور نفسها. وفي حالة الكويت انتهى عصر الصور المبكرة عندما بدأت الكويت ذاتها تتحول من مشيخة تقليدية إلى دولة حديثة.

وباختصار فإننا نعتبر أن التصوير المبكر للكويت هو نفسه تصوير الكويت ما قبل عصر الحداثة. وتحول الكويت هو بطبيعة الحال موضوع يستحق التسجيل الفوتوغرافي، ولكنه ليس بؤرة اهتمام هذا الكتاب. فمن ناحية يمكن القول أن التصوير المبكر لمجتمع ما سيسجل حتماً اللحظات الأخيرة للحقبة التي سبقت تحديث هذا المجتمع، حيث أن وصول التصوير الفوتوغرافي ذاته إلى هذا المجتمع يحدث ضمن الخطوات الأولى لعملية التحديث نفسها

ولذلك فإن الكاميرا تسجل الأوضاع والأشياء وهي على أعتاب طور التغيير. وبهذا يمكن اعتبار الكاميرا أداة تخلد الذكريات الرومانسية عن طريق التسجيل المتواصل لمشاهد الماضي الموشك على الضياع. وإذا بدا أن صور الكويت القديمة تسجل شيئاً يتميز بالثبات والبقاء والاستمرارية، حين كان التغير يتم بطيئاً، فإنها تسجل أيضاً نهاية عصر كان فيه التغير ببطء أمراً ممكناً. أما اليوم فنحن نعيش عصر التغير الدائم حيث غدا التغير السريع هو المألوف، وبات الزمن ينطوي بسرعة ويدفن معه الماضي القريب. ولأن بعد المسافات واختلاف الحال عن المألوف كلاهما تولدان الحنين في النفوس، يصبح من السهل الانخداع بالرومانسية الكامنة في صور الماضي الذي فقدناه والانسياق في غفلتنا وراء الاعتقاد بأن الحياة كانت أفضل في تلك الأيام

وندرة الصور القديمة أيضاً تجذبنا إليها، فهي تبدو وكأنها نافذة فريدة على عالم لا يراه إلا صفوة محظوظة ولا وجود له خارج أطر تلك الصور. ولكن الحقيقة هي أنه يتعين علينا التعامل مع تلك الصور الفوتوغرافية من منطلق الحرص البالغ، حيث أنها ليست سوى لمحات خاطفة من سيل الحياة المتدفق. وعلينا الاعتماد على وسائل البحث التاريخي الأخرى لتحديد ما إذا كانت هذه البقايا ترقى إلى مقام الدلائل والبراهين الهامة أو أنها مجرد تشكيلة عشوائية من المشاهد التي لا تدل على شيء ذي بال

كما أنه من السهل الاعتقاد بأن الصور الفوتوغرافية تتيح لنا بعض الفهم الحقيقي لمجرد أنها تسجل الهيئة التي بدت بها الأشياء. وفي الواقع لا توفر لنا الصور إلا أقل قدر من الفهم إذا أخذناها بمفردها دون ما قد يصحبها من المعلومات والتفسيرات. وأفضل الصور الفوتوغرافية من وجهة نظر المؤرخ الاجتماعي هي تلك الصور التي تسجل أحد عناصر الحياة الدائمة، وأحد معالم الماضي المتكررة، مثل الأنشطة الدائرة في سوق الكويت أو تفريغ المياه في المرفأ من المراكب القادمة من شط العرب. ولكن مغزى الصورة وأهميتها يضيعان تماماً إن لم نفسرها. فالصور القديمة لا تحمل معناها واضحاً جلياً، بل يقوم معناها على الخلفية والظروف التي نراها فيها. وخلال السنوات التي تعيشها الصورة القديمة قد يتلاشى معناها الأصلي بالتدريج لتحل مكانه المعاني الجديدة، وربما ينتهي بها الأمر وقد خلت تماماً من المعنى والمغزى، ولا تكون لها قيمة إلا بما قد تحويه من جمال أو إثارة. وعندها تكون مجرد لوحة فنية يمتزج فيها الضوء بالظل. وفي حالة الصور التاريخية القديمة فإن هذا الجمال قد يكون خاصية تسر



الصفحة السابقة: وسائل تحريك التراب القديمة والحديثة. وفي هذه المفارقة تسجل الكاميرا مرحلة التغيير، ووجود الكاميرا نفسه جزء من هذا التغيير. وهذان الرجلان واحد عربي والآخر أوروبي، يبدو أنهما يدركان ما يمر بهما من تغيرات.
مصور شركة بريتيش بتروليوم، أواخر الأربعينيات.

الصفحة المقابلة: صورة جوية للكويت عبر الطرف الغربي للمدينة التقطت خلال الفترة ١٩٤٦-١٩٤٨، وذلك عشية عملية التحديث السريعة التي طرأت في الخمسينيات.
مصور شركة بريتيش بتروليوم، ١٩٤٦-١٩٤٨

النفوس. ولكن المؤرخ المهتم بالماضي يعتبر الجمال أقل خواص الصورة أهمية وفائدة.

تنتمي مجموعة الصور التي اخترناها إلى فترة تنتهي بدخول الكويت عصر التصوير الفوتوغرافي الحديث، أي مع وصول أوائل المصورين المحترفين للعمل مع شركات النفط وبدأ انتشار الصور على نطاق واسع. فمع تضاعف أعداد الصور وزيادة الشبه بين العالم الذي تعرضه وعالمنا الحالي يقل بطبيعة الحال التفاتنا إليها. واليوم صرنا لا نهتم ولا نتأثر إلا بالصور الفوتوغرافية المتميزة بالتفرد والمبالغة، إما فيما يتعلق بمضمونها أو بالتقنية المستخدمة في التقاطها. فسيل المشاهد التي تتوالى أمام أعيننا كل يوم ولد فينا نوعا من الملل والفتور تجاه الصور.

إلا أنه رغم اكتسابنا مناعة متزايدة ضد التأثر بالصور المحيطة بنا، فإننا لا زلنا ننتج المزيد منها بمعدل دائم التسارع. واليوم لم تعد الكاميرا تعكس الواقع فحسب، إنما تجاوزت ذلك وصارت تغير الطريقة التي نعايش بها واقعنا وخبرتنا بالأماكن والمناسبات التي تزخر بها حياتنا. وكثيرون هم اليوم من يشعرون بأن وجودهم لا يكتمل إلا بالظهور في الصور، بل يشط الأمر بالبعض منهم فيلتمسون الدعاية من خلال الصور وكأن في ذلك منبع الحياة وسر دوامها. وبهذا غدا التصوير الفوتوغرافي يضفي نوعا من المصداقية على وجودنا في هذا العالم وخبرتنا بالدنيا. وبالنسبة للعديد من السياح صار تصوير كل جديد يمرون به أيسر عليهم من فتح أعينهم بصدق وعمق على ما يحدث أمامهم، فهم يضعون المشهد في إطار عدستهم ويلتقطون الصورة وقد انتقلوا بأفكارهم ومخيلتهم إلى المستقبل حين يرون الصورة الناتجة، وحين يكون حاضرهم قد صار في عداد الماضي. وهكذا، بأخذ صورة لواقعنا الحالي المعاش يكون التصوير الفوتوغرافي قد صار حاجزا يحول بيننا وبين خبرتنا المباشرة بالحياة. وحتى لو لم يكن بيدنا كاميرا فإننا نحكم دائما على ما نراه من منظور الكاميرا ومن منطلق إذا كان سيشكل مشهدا جميلاً في الصورة الفوتوغرافية. لقد جعلتنا الكاميرات السهلة الاستخدام زوارا وسياحا، ليس فقط عندما نزور بلاد غيرنا ونتفرج على حياتهم، ولكن في عقر ديارنا ذاتها وفي صميم حياتنا أيضا.

وكمثال على ذلك نسوقه من كلمات أحد كتاب عصرنا الحالي، فإن الأديبة جيني ديسكي (Jenny Diski) قامت ذات مرة بزيارة سياحية في قارة أنتاركتيكا القطبية ونست أن تأخذ كاميرتها معها في الرحلة، وقد تتبعت رفقائها المسافرين وهم يصورون المشاهد التي توالت أمام أعينهم وسطرت العبارات التالية في وصف ما رأته منهم:

... تساءلت ما الغرض من مشاهدة هذه الطبيعة المهيبة إذا كنا سنكتفي بإدارة رؤوسنا ومواصلة الطريق؟ ولربما دار هذا السؤال في أذهان بقية المسافرين وكان سببا في سرعة التقاطهم للصور؛ فالصورة الفوتوغرافية كانت البرهان الذي يثبت لهم بالدرجة الأولى، وليس لأهليهم وحدهم، أنهم زاروا ذلك المكان. إنها الدليل الوحيد على أن شيئا ما قد حدث وأنه لم يكن نتاج الخيال الجامح أو الذاكرة المختلة. كما أن فعل التقاط الصورة نفسه دخل على لحظة معايشة التجربة التي نصورها ليكون حدثا مثيرا في حد ذاته، وكأن التجربة لا تكفي بمفردها. فإذا اكتفى المرء بالنظر فقط ثم رحل عن المكان، بما يبرر زيارته بعد عودته إلى داره؟ إن عملية تخيل هذا المشهد الخلاب ليست من المستحيلات، وبمقدور المرء أن يجلس مستريحا في منزله ويشيد مكانا مماثلا في خياله حيث لا حدود لمدة استمتاعه به بمفرده. أما في عالم الواقع فالإنسان يمر بمكان فينظر إلى المشاهد القائمة أمامه ثم يرحل - لذلك يلتقط الصورة ليضفي على أفعاله وتجاربه ما ينقصها من المعاني والأهداف.

(جيني ديسكي "التزلج حتى أنتاركتيكا"، الصفحات ٢٣٢-٢٣٣)

إن التصوير المبكر في الكويت، رغم افتقاره للاستمرارية وغزارة الإنتاج، يرسم لنا لوحة عن مجتمع يعيش مخاض حقبة من التغيرات المتسارعة خلال النصف الأول من القرن العشرين. وتتألف اللوحة بالدرجة الأولى من عناصر سياسية واجتماعية واقتصادية وبيئية: الأحداث السياسية التي صاغت دولة الكويت خلال تلك الفترة، والأنشطة التي كسب بها الكويتيون أقواتهم، والكيفية التي سيروا بها شؤون حياتهم اليومية، والبيئة المادية التي عاشوا فيها. ودراستنا لهذه الصور لا تشوبها الآثار الشديدة المترتبة على نفوذ الكاميرا الهائل الذي تحدثنا عنه أعلاه، بل إننا نتمتع في دراستها بميزة فريدة: فالكويت قبل عصر التحديث لا تزال تعيش في ذاكرة الكثير من الناس.

وبالنسبة لهؤلاء الذين عايشوا الماضي مباشرة فإن الصور الفوتوغرافية تساعدهم على استعادة الماضي، حيث تصحح من عيوب الذاكرة. بل تضيف إلى ما يعرفونه عن الماضي بأن تكشف لهم عن أشياء لم يروها أو لم يلتفتوا إليها. إن الصور المبكرة توفر للكويتيين أرضية خصبة لتفسير الماضي، ومن ثم استرجاع تاريخهم



الصور الفوتوغرافية

شكر وتقدير:

نتوجه بجزيل الشكر إلى سفارة دولة الكويت والمركز الإعلامي الكويتي في لندن وقطاع الاعلام الخارجي بوزارة الإعلام لما قدموه لنا من مساعدة قيمة في إخراج النسخة العربية ونشكر بصفة خاصة مدير المركز الاعلامي الكويتي في لندن الدكتور سعد العجمي والملحق الاعلامي السيد/جاسم الحبيب لتكرمهما بمراجعة النص العربي والتعليق عليه

كما نخص بالشكر الأفراد التاليين تقديراً لمساهمتهم في البحوث المتعلقة بالصور: الشيخة حصة الصباح، باتريشيا الدرسون، السفارة البريطانية في الكويت، آيدان برودريك، كلير براون، رونالد كلارك، إيما دين، هانمر ديكسون، الدكتورة جيزيلا دمبروسكي، ديفيد هودج، روبرت جارمان، كلوديا فركس الرشود، روزماري رندل، إفيم رزفان، آلان راش، جوانا سكادن، نانسي فيليارز؛ كما نتوجه بالشكر بصفة خاصة إلى الدكتور يعقوب يوسف الحجي الذي كان عمله القيم "الكويت القديمة – ذكريات في الصور" رفيقاً دائماً لي. لقد بذلنا كل ما بوسعنا من جهود للتعرف على أصحاب حقوق نشر ما يتضمنه الكتاب من مواد والاتصال بهم. إن مؤلفي هذا الكتاب وناشره يسجلون شكرهم وتقديرهم للمصادر التالية التي وفرت الصور الفوتوغرافية

ETH - Bibliothek Zurich, Arnold Heims Album Arabia 1924 (Hs 494b:19): jacket front, jacket back, pp. 7 (bottom), 22, 62 (both pictures), 63, 64 (all 4 pictures), 65 (all 4 pictures), 66 (all 3 pictures), 67, 68 (both pictures), 69.

The Historic Photographs Section, National Maritime Museum, Greenwich, London: Villiers Collection: pp.2-3, 90 (top), 95, 96, 98, 99 (both pictures), 100, 101, 102 (all 3 pictures), 103, 104 (all 3 pictures), 105, 106, 107, 108, 109, 110, 111, 112, 113 (both pictures).
Lt Cmdr A.N. Gouldsmith: pp.16, 41, 42 (below left), 43.
HMS *Investigator*: p.42 (top).
Fellowes album: p.70.
HMS *Emerald*: pp.71, 72, 73 (both pictures), 74 (all 3 pictures), 75, 76 (all 3 pictures), 77.
G. Selous album: pp.78 (right), 79.
Capt. G. Ward-Smith: pp.78 (left), 80 (top left).

Maidstone Museum and Art Gallery, Maidstone Borough Council, UK: Admiral Bethell/HMS *Highflyer*: pp.42 (below right), 44 (both pictures).

The Royal Geographical Society, London:
W.H.I. Shakespear Collection: pp.7 (top), 9, 15, 45 (top left), 46 (all 3 pictures), 47, 48, 49.
De Gaury Collection: pp.23 (left), 25 (left), 90 (below), 91 (top), 92; A.R. and S. Lindt: pp.91 (centre and below), p.93 (all 3 pictures), 94.
Rendel Collection: pp.85, 86, 87 (both pictures).
M. O'Connor album: pp.114, 115.

William Facey: p.12.

The Russian State Naval Archives, St Petersburg: pp.18 (left), 33, 34 (left and right), 35 (all 3 pictures).

British Library, Oriental and India Office Collections: p. 19, 37 (both pictures), 38.

British Embassy, Kuwait: p.20, 45 (top right).

Middle East Centre, St Antony's College, Oxford:
Bowman Collection: p. 21.
Edmonds Collection: pp. 23 (top right), 83 (all 3 pictures), 84.
Dickson Collection: pp. 24, 26 (left), 80 (right above, centre and below), 81, 82.
Van Ess Collection: p.61 (all 3 pictures).
Freya Stark Collection: pp.88, 89 (all 3 pictures).

British Airways Archive: p. 23 (timetable).

BP Archive: pp. 25 (right), 26 (right), 27, 29.

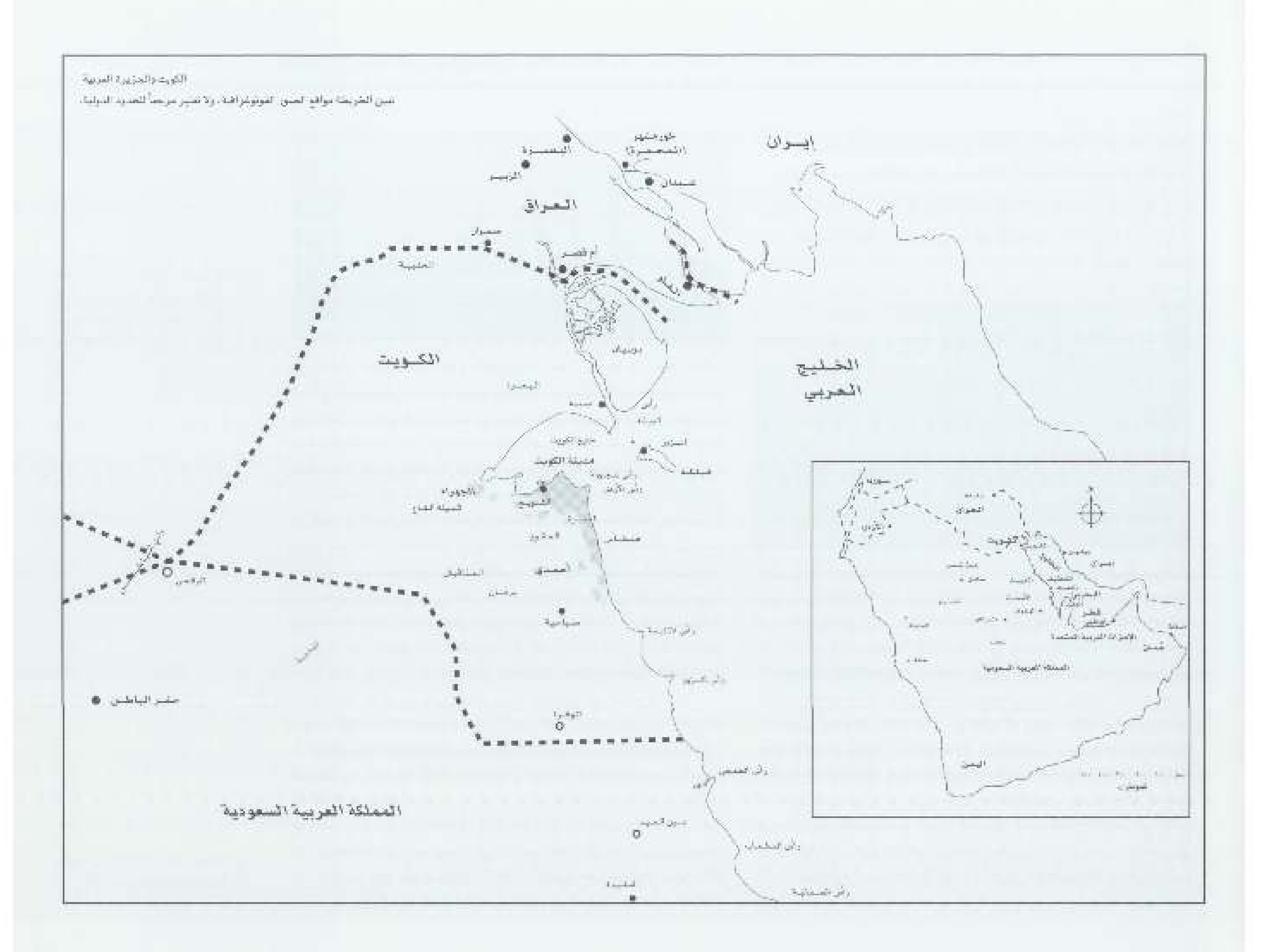
Imperial War Museum, London: pp. 32, 116, 117, 118, 119.

Museum für Völkerkunde, Berlin, Hermann Burchardt Collection: pp. 39 (both pictures), 40 (all three pictures).

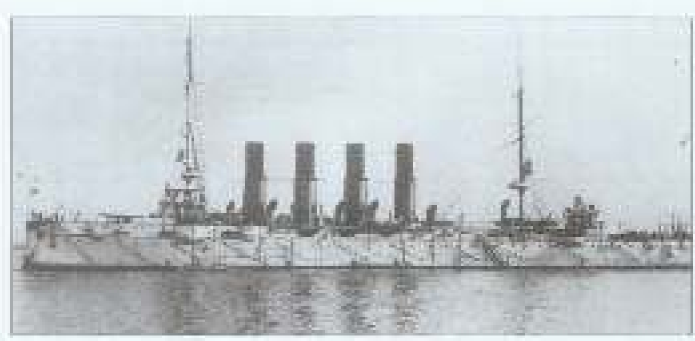
Cambridge University Library, Department of Manuscripts, Hardinge papers: pp. 52, 53 (both pictures), 54 (all 3 pictures), 55.

Neglected Arabia: pp. 56, 57 (both pictures), 58, 59 (all 3 pictures), 60 (below left).

© Sir Wilfred Thesiger (Pitt Rivers Museum, Oxford and Curtis Brown on behalf of Wilfred Thesiger): pp.120, 121, 123, 124.


الكويت والجزيرة العربية
تبين الخريطة مواقع الصور الفوتوغرافية، ولا تعتبر مرجعاً للحدود الدولية.
ايران
البصرة
الزبير
خورمشهر
(المحمرة)
عبادان
العراق
أم قصر
بوبيان
الكويت
الخليج
العربي
مدينة الكويت
الجهراء
الأحمدي
حفر الباطن
الوفرة
المملكة العربية السعودية

سفن روسية في الكويت، ١٩٠٠-١٩٠٣



الطراد الروسي فارياج، ويظهر هنا عام ١٩٠٢ بعد زيارة الكويت بفترة وجيزة. المتحف الحربي الامبراطوري – الرمز غيو ٢٢٤٥٥

مثلها مثل غيرها من القوى الأوروبية، كانت روسيا في أوائل القرن الحالي تسعى إلى توسيع دائرة نفوذها وبسط سيطرتها على مناطق جديدة. وقد رغب الروس بصفة خاصة في توسيع علاقاتهم بالبلدان العربية حيث أنهم شاركوا العرب في عدائهم تجاه الامبراطورية العثمانية. واعتبر العرب من ناحيتهم أن روسيا بصفة عامة كانت صديقاً محتملا يستعينون به في مواجهة الطموحات الامبريالية التي حركت بريطانيا وفرنسا وأملت سياساتهما في المنطقة العربية.

كما كان لروسيا دافع آخر للتورط في الخليج. فقد كانت ترغب في تعزيز نفوذها المتنامي في إيران التي كانت بدورها تسعى إلى تقوية سيطرتها على الساحل الايراني للخليج. وفي نفس الوقت كانت هيبة بريطانيا قد تدهورت كثيراً عام ١٨٩٩ نتيجة للهزائم المبكرة التي منيت بها في حرب البور بجنوب افريقيا. وفي ضوء كل ذلك بدا عام ١٨٩٩ موعداً ملائماً لكل من يرمي الى زعزعة مركز بريطانيا في الخليج

شرعت وزارة الخارجية الروسية في هذه المهمة بحذر، والتزمت جانب الحيطة وهي تضع الخطط ذلك العام لإرسال السفينة الحربية غيلياك (Gilyak) إلى الخليج:

> ... باستعراض راية روسيا في الخليج، نقول للبريطانيين وللسلطات المحلية على حد سواء إننا نعتبر الخليج مفتوحاً أمام سفن كافة الأمم، رغم رغبة الحكومة البريطانية في تحويله الى بحيرة مغلقة داخل دائرة نفوذها الحصرية. فاذا أدت السفينة غيلياك المهمة المنفاة على عاتقها، تكون قد خلقت انطباعات قوية دون التلميح الى اغراض عدوانية أو مخططات للاستيلاء على أراض جديدة.
>
> رزفان (Rezvan)، "سفن روسية في الخليج"، الصفحة ٤

لقد رسم مهندسو السياسة الروس صورة بالغة الخطورة والطمع للسياسة البريطانية في الخليج، ليسهل عليهم تقديم النوايا الروسية بالمقابل على أنها مسالمة وخيرة. والواقع هو ان الهدف الرئيسي لبريطانيا في القرن التاسع عشر كان الحفاظ على السلام في البحار، طبعاً بالنسبة لسفنها بالدرجة الأولى ولكن دون الحصر عليها بل لغيرها من سفن الدول الأخرى أيضاً. ويمكن القول ان بريطانيا كانت قد اقامت بالفعل في الخليج نفس الوضع الذي كان الروس يعتقدون انه مطلوب ولكن غير موجود، اي حكام مستقلون وبحر مفتوح للتجارة الآمنة.

وقد جاءت أكثر الآراء اتزاناً في هذا الشأن من ربان السفينة فارياج في تقرير كتبه عن زيارته للخليج عام ١٩٠١ حيث قال: "أما فيما يتعلق بأي دلائل ظاهرة تشير الى هيمنة الحكومة البريطانية على اي ميناء من الموانئ التي زرتها، فأنا لم ألحظ اي شيء من ذلك، باستثناء الوجود الدائم للسفن البريطانية المتمركزة في الكويت (كانت السفينة بومون (Pomone) في الكويت لمساعدة الشيخ مبارك على صد هجوم ابن الرشيد حاكم حائل)، وفي بوشهر ومسقط".

ومع ذلك فمن المؤكد أن المسؤولين البريطانيين نظروا بعين الريبة إلى القوى الأخرى التي حاولت استمالة وخدعة الحكام المحليين بغية الحصول على موطئ قدم في عمان والخليج، وذهب بهم الأمر إلى الدخول في اتفاقيات حصرية مع شيوخ الساحل المتصالح والكويت في عامي ١٨٩٢ و١٨٩٩ على التوالي، وتحولت هذه المناطق على أساسها الى محميات فعلية ان لم يكن بالاسم. ورغم أن سلوك بريطانيا في الخليج كان أبعد ما يكون عن السياسة الامبراطورية العدوانية، فإن ظهور

روسيا على متن السفن الحربية. مهما كان حسن النية وراء زيارتها، قد تسبب بطبيعة الحال في تخوف البريطانيين. وفي حين لم تحاول بريطانيا منع السفن الروسية من الإبحار في أرجاء الخليج، فإن المسؤولين البريطانيين تحركوا بقدر استطاعتهم من وراء الستار لإعاقة معاملات روسيا على الساحل

ولكن البريطانيين لم يتمكنوا قبل جولة كيرزون عام ١٩٠٣ من تخفيف الانطباع القوي الذي تركه الروس في نفوس سكان الخليج. كانت السفينة غيلياك قد وصلت الكويت في فبراير ١٩٠٠، بعد أن زارت بندر



عباس والدير وبوشهر والمحمرة والبصرة. استدعت الحكمة أن يقوم الشيخ مبارك بالاحتفاظ بخياراته مفتوحة، فرحب بالروس ترحيباً حاراً، مع أنه كان قد وقع لتوه في العام السابق على اتفاقيته السرية مع بريطانيا. وقد علق ربان السفينة غيلياك على الوضع بأن قال ببعض السذاجة "أن الشيوخ العرب يفهمون مدى استقلالهم شبه التام تحت الحكم التركي الاسمي، في حين أن وضع المحمية البريطانية سيعني نهاية كافة أنواع الاستقلال". لقد كان هذا الرأي ليدهش المسؤولين البريطانيين في القرن التاسع عشر الذين كانوا يعتبروا مهمتهم تتلخص في الحفاظ على استقلال شيوخ الساحل مع أقل قدر ممكن من التدخل في شؤونهم.

وفي عام ١٩٠٠ وضع الروس الخطط لبدء خط رحلات منتظمة بالسفن البخارية بين أوديسا وموانئ الخليج. ثم افتتحوا في عام ١٩٠١ قنصليتين جديدتين في البصرة وبوشهر. وقد تبع ذلك جولة الطراد فارياج ذي الأربع مداخن على موانئ الخليج. وقد وصل الطراد إلى الكويت في الثامن من ديسمبر عام ١٩٠١، بعد انقضاء فترة وجيزة على التوصل إلى "تفاهم الوضع القائم" بين بريطانيا وتركيا، وصعد الشيخ جابر الصباح على متن السفينة للترحيب بالروس، حيث كان الشيخ مبارك نفسه في الجهراء على رأس قوة من ٣٠٠٠ رجل انتظاراً لهجوم يتبع به ابن الرشيد انتصاره في معركة صريف في نفس العام. وقد ذهب ضباط السفينة فارياج مع أوفسينكو (Ovseyenko)، القنصل الروسي في بوشهر، إلى الجهراء حيث حظوا بالترحاب. فاستعرضوا القوات وشاهدوا عروض الفروسية والرقص. ورغم أن تقرير ربان الفارياج لا يذكر التصوير الفوتوغرافي، إلا أن الصور المحفوظة في أرشيفات البحرية المركزية في سانت بطرسبرغ والمعروضة في هذا الكتاب هي صور التقطت أثناء تلك الرحلة.

وقد أخبرهم الشيخ مبارك أنه إذا احتاج إلى المساعدة فسيتوجه بطلبها الى روسيا، وبذلك أبقى مرة أخرى على خياراته مفتوحة، حرصاً على المساعدة البريطانية في حماية الجهراء والكويت بمدافع السفينة بومون الراسية قبالة الشاطئ؛ بل وتدريب المدفعيين الكويتيين على استعمال تلك المدافع. وذلك في وقت لم تكن لمدينة الكويت نفسها أية تحصينات. أما بالنسبة للسفينة فارياج فقد خلقت انطباعاً قوياً في الكويت بفضل أضوائها الكاشفة القوية ومدافعها العملاقة وفرقة الموسيقى النحاسية التي سافرت على متنها، وبفضل المستوى العام للتكنولوجيا المطبقة فيها. فكان رد بريطانيا على ذلك فوري، حيث قامت بتركيب الأضواء الكاشفة على بعض سفنها وأرسلت الطراد أمفيترايت (Amphitrite) في جولة على موانئ الخليج، إلا أنها لم تنجح في تخفيف الانطباع المحلي بالتفوق الروسي

كان الروسي التالي الذي استقبله الشيخ مبارك (بخلاف مختلف التجار الذي أقاموا علاقات تجارية مع الكويت في تلك الفترة) هو خبير علم الحيوان، بوغويفلنسكي (Bogoyavlensky)، الذي كان يجري دراساته في المحمرة والكويت والبحرين ومسقط نيابة عن جمعية هواة العلوم الطبيعية والأنثروبولوجيا والإثنوغرافيا بجامعة موسكو. فلما وصل في مارس أو إبريل عام ١٩٠٢، استقبل في الكويت بحفاوة بالغة عبر له الشيخ مبارك عن مشاعر الأخوة التي يكنها تجاه الروس، كما عبر كعادته عن قلقه تجاه المخططات الألمانية والتركية الرامية إلى بناء

يمين: الشيخ جابر الصباح في جولة على السفينة فارياج مع ضباطها الروس في ديسمبر ١٩٠١

يسار: أول صورة لشاطئ الكويت، التقطها أحد أفراد طاقم السفينة فارياج في ديسمبر ١٩٠١



أقصى اليسار: التقطت هذه الصورة لمدينة الكويت من ناحية الصحراء، وتظهر فيها أرض المقبرة السفينة فارياج، ديسمبر ١٩٠١.



خط حديد بغداد وإقامة محطة نهائية له في الكويت، حيث اعتبر الشيخ مبارك أن هذا المشروع سيعني نهاية استقلاله واستقلال الكويت، وربما كان محقاً في ذلك. وقال الشيخ مبارك لضيفه إنه يتمنى من الله ألا يكتب لهذه المحنة أن تقع، وهو ما تحقق بالفعل. ويشير تقرير بريطاني أن بوغويفلنسكي التقط العديد من الصور أثناء زيارته للكويت، إلا أن أحداً لم يوفق في الاستدلال على مكانها بعد أن كانت لا تزال باقية.

كان الطراد أسكولد (Askold) ذو المداخن الخمس هو أكبر سفينة روسية تزور الكويت، حيث وصلتها في الأول من ديسمبر عام ١٩٠٢ وعلى متنه طاقم قوامه ٥٨٠ رجلاً. وصعد الشيخ جابر الصباح وابنه أحمد (حاكم البلاد فيما بعد) على متن السفينة للترحيب بالروس. ومع أن العلم التركي كان يرفرف على قصر الشاطئ (الذي كان أيامها منزلاً كبيراً يتألف من طابقين على كل منهما شرفات عدة) فإن ربان السفينة كان يدرك تمام الإدراك أن "الشيخ في الواقع يرفض الاعتراف بسلطة السلطان ولا يدفع له الخراج". وقد أعجب أبناء الكويت بهذه السفينة الحديثة المذهلة، وخلبتهم بصفة خاصة أضواءه الكاشفة التي أضاءت جزء من مدينة الكويت في المساء.

أما آخر سفينة روسية فكانت الطراد بويارين ذي المداخن الثلاث، وقد زار الكويت بين يومي ٢٠ و٢٣ فبراير ١٩٠٣ في إطار جولة على الخليج رافقته فيها السفينة الفرنسية إنفرنيه (Infernet) تعبيراً عن التحالف القلق الذي ربط روسيا بفرنسا آنذاك والذي قام ليس على أساس المصالح المشتركة إنما على تنافسهما ضد بريطانيا، حيث كانت فرنسا تتحدى بريطانيا في مسقط وتساهم بقسط كبير في مشروع سكة حديد بغداد.

كتب ربان السفينة بويارين في تقريره عن آثار معركة صريف التي وقعت العام السابق واضطر الشيخ مبارك إثرها إلى الفرار من الجهراء أمام هجوم ابن الرشيد والتحصن في مدينة الكويت. وتلى ذلك حفر خندق حول المدينة بناء على نصائح وتعليمات ضباط بريطانيين، وكان سلفاً للسور الذي تم تشييده عام ١٩٢٠ لصد أي هجمات أخرى تشن على المدينة من الأراضي الكويتية بالداخل. وقد ورد الوصف التالي للخندق في التقرير الذي دونه ربان السفينة بويارين بهذا الصدد: "يبدأ الخندق في أحد أطراف الميناء ويمتد ليحيط بها وينتهي في الطرف الآخر. وقد برع مشيدو الخندق في استغلال الآبار وغيرها من الإنشاءات القائمة والتي تقدم حماية جيدة. وفي بعض أجزاء الخندق يمكن إطلاق النار من على ارتفاع الركبتين، وفي أماكن أخرى يمكن إطلاقها وقوفاً".

ومن أهم ما يلفت في الأمر أن الأمير عبد العزيز بن سعود كان في الكويت مع أشقائه محمد وسعد في تلك الأيام، وقد احتفى به الشيخ مبارك احتفالاً كريماً تقديراً لهجمته الجريئة التي استعاد بها الرياض في السنة السابقة. وكان القائد السعودي الشاب آنذاك في الكويت ليجمع من الشيخ مبارك إمدادات وتعزيزات قوامها ١٤٠٠ رجل ليواصل

بهم حملته ضد ابن الرشيد. ورغم انه لم يقم بزيارة الطراد بويارين بنفسه، فإن شقيقيه محمد وسعد صعدا على متنه قبل أن يغادرا الكويت لمواصلة الحملة

وعلى عكس ربان الطراد ڤارياج يذكر ربان بويارين التصوير الفوتوغرافي في تقريره، حيث كتب يقول انه في أحد أيام مكوثهم



بالكويت نزل وكيل ربان الطراد بويارين إلى الشاطئ حاملاً معه جهاز كاميرا وبصحبته عدد من ضباط السفينتين. فركبوا الخيل الى عمق الصحراء وجلسوا لتناول وجبة الغذاء مع الشيخ مبارك. وبعد ذلك زاروا الأمير عبد العزيز بن سعود ولازلنا ننتظر اكتشاف هذه الصور إن كانت لا تزال موجودة





أعلى يمين: يبدو أن الابتسام أمام عدسة الكاميرا التي لم يألفوها بعد كان شيئا طبيعيا لهؤلاء الكويتيين الشباب.
السفينة ڤارياج، ديسمبر ١٩٠١.

أسفل يمين: ينتظر الكويتيون بفضول أن المصور الروسي وهو يلتقط هذه الصورة في الصفاة، وهي الأرض الواسعة المفتوحة التي تقع على الناحية الداخلية من المدينة.
السفينة ڤارياج، ديسمبر ١٩٠١

يمين: العرضة رقصة حرب للترحيب بالروس في الجهراء، حيث كان الشيخ مبارك قد أقام معسكرا لقواته.
السفينة ڤارياج، ديسمبر ١٩٠١.



اللورد كيرزون بعيد تعيينه نائباً للملكة في الهند عام ١٨٩٨

اللورد كيرزون، ١٩٠٣

جاءت زيارة حاكم الهند البريطاني، اللورد كيرزون، إلى الكويت في أعقاب الاتفاقية السرية بين بريطانيا والشيخ مبارك المبرمة عام ١٨٩٩، وبعد تبادل الرسائل مع الحكومة العثمانية عام ١٩٠١ الذي هدف إلى الاتفاق على أسس العلاقات بين تركيا وبريطانيا فيما يتعلق بالكويت بعد أن كشفت تركيا النقاب عن اتفاقية عام ١٨٩٩ السرية. وتبادل الرسائل هذا، والمعروف باسم "تفاهم الوضع القائم"، لم ينتج عنه توضيح يذكر في وضع هاتين الإمبراطوريتين المتنافستين، بل إن اللورد كيرزون نفسه كان لاذعاً في نقده للتضارب الذي وسم هذا "التفاهم" فقال: "يبدو لي أننا الآن في موقف فريد وعجيب، حيث أننا أقرينا بسلطة السلطان وأنكرناها، وقبلنا سيادته ورفضناها، وأكدنا على استقلال الشيخ وتنازلنا عنه في نفس الوقت".

والواقع هو أن وضع الكويت في إطار العلاقات التركية البريطانية انطوى بطبيعته على التناقض، ولم يكن بوسع أية صيغة كلمات مهما كانت أن تعبر عن هذا الوضع تعبيراً يجد فيه الطرفان ما يرضيهما بالكامل. وبالتالي كانت الكويت هي المستفيد الوحيد من هذا "التفاهم"، حيث تمكن الشيخ مبارك بمقتضاه من التظاهر بأنه أحد رعايا السلطان الأوفياء مع تمتعه في نفس الوقت بالحماية البريطانية.

أما بالنسبة لبريطانيا فقد كانت علاقاتها مع تركيا جزءاً هاماً من استراتيجيتها البعيدة المدى الرامية إلى الحفاظ على خطوط اتصالاتها مع الهند. وكان اللورد كيرزون حريصاً على عدم إغضاب الأتراك بالتشكيك في الحقوق التي اعتقدوها لأنفسهم في الكويت، بل ذهب إلى حد استنكار جهود الشيخ مبارك الرامية إلى توسيع رقعة أراضيه على حساب آل الرشيد حلفاء تركيا في حائل. ومع ذلك تواصلت المخططات العثمانية ضد الكويت دون هوادة. وأدرك كيرزون أن القيام باستعراض للقوة سيذهب أبعد من أي اتفاقية مبهمة في طمأنة الشيخ إلى التزام بريطانيا بصيانة استقلاله في ظل حمايتها.

وبجانب مسألة العلاقة مع تركيا، كانت جولة كيرزون الخليجية البارزة تستهدف أيضاً توجيه ضربة إلى طموحات روسيا وألمانيا وفرنسا في تجاه عمان والخليج برمته. وبأسلوب يليق بمركزه كأحد كبار المدافعين عن المصالح الإمبريالية البريطانية، انطلق كيرزون في جولته من كراتشي على متن السفينة هاردينغ في رأس أسطول تضمن سفينة حربية ضخمة اسمها أرغونوت (Argonaut)، وكانت بمداخنها الأربع وسفنها المرافقة الخمس تمثل في حد ذاتها استعراضاً للقوة جديراً بأن يمحو من أذهان أهل الخليج الانطباع القوي الذي خلفته في أواخر العام السابق السفينة الروسية أسكولد ذات المداخن الخمس. وعندما وصل كيرزون إلى الشارقة عقد مجلسه على متن السفينة أرغونوت وخطب في الشيوخ المجتمعين بكلمة كانت، في نظره هو، تعبر تعبيراً رائعاً وبليغاً عن سياسة بريطانيا الامبراطورية التي ترعى مصالح الجميع:

"لقد جئنا هنا قبل أن تظهر أية قوة أخرى وجهها في هذه المياه خلال العصر الحديث. وجدنا هنا النزاعات فأقمنا النظام. كانت تجارتنا وكذا أمنكم هم ما تعرض للتهديدات واستدعى حمايتنا. وما يزال رعايا ملك إنجلترا اليوم يتمتعون بالعيش والتجارة في كل ميناء على هذا الساحل. إن إمبراطورية الهند العظيمة التي من واجبنا حمايتها تقع على أعتاب دياركم. لقد أنقذناكم من الدمار على أيدي جيرانكم وفتحنا هذه البحار أمام سفن سائر الأمم لترفرف راياتها في سلام. لم نستول على أراضيكم أو نضمها. لم نقض على استقلالكم بل حفظناه. نحن لن نتخلى اليوم عن جهد مائة عام من العطاء والانتصارات، لن نمزق أهم صفحات التاريخ أنانية. لابد أن نواصل الحفاظ على سلام هذه المياه، والذود عن راية استقلالكم، ولابد لنفوذ الحكومة البريطانية أن يظل هو الأعلى."

كان الشيخ مبارك يعرف كيف يرحب بالمسؤولين الأجانب في الكويت. وعندما وصل كيرزون إلى الكويت في نوفمبر استقبله الشيخ مبارك وشعبه استقبالاً حافلاً. وتوضح صور هذه المناسبة الشيخ وهو يستقبل نائب الملك على الشاطئ على مسافة ثلاثة أميال من المدينة، في حين أحاط بهم الجنود الراجلين والفرسان على ظهور الخيل والجمال لمرافقتهم إلى المدينة في موكب شرف. واستقل الشيخ مبارك واللورد كيرزون الحافلة الوحيدة بالكويت التي تجرها الخيول، وهي حافلة





جديدة مفتوحة من نوع فيكتوريا وكان الوفد المرافق لكيرزون يضم الوزير البريطاني لدى طهران الذي أعطي فرساً ليركبه، ويواصل اللورد كيرزون القصة قائلاً:

... بدأ الركب في التحرك وسط سحابة غبار وعندها بدا وكأنه من واجب المرافقين على ظهور الخيل والجمال التعبير عن فرحتهم ليس فقط بإطلاق صيحات حرب من أشد ما سمعته تجميداً للدم في العروق، بل أيضاً بإطلاق النيران بشكل سخي وعشوائي، إما مصوبين أسلحتهم تجاه السماء أو إلى الأرض عند أقدام جيادهم المتواثبة، بينما اختار آخرون رمي رماحهم بحماسة في الهواء، وكانت النتيجة أن عمت أشد حالات الهرج والمرج، وامتلأ الهواء بدوي الطلقات، وغطت الأرض زوبعة من الجياد الجامحة والخيالة الصارخة والأتربة المتصاعدة وكان بعض الفرسان عراة الرؤوس وحين انطلقوا تطاير شعرهم المجدول في الهواء، بينما ارتدى آخرون ثياباً فضفاضة باللون البرتقالي والأحمر والبني الذهبي، وكان الشيخ مبارك يرتدي ثوباً بتقليمات واسعة

وفي وسط هذا المشهد رأيت الوزير البريطاني وقد رمي فجأة من فوق رأس فرسه ليسقط بعنف على الأرض، فلم تثبط همته وببسالة عاد الى سرجه وواصل مساره المتعرج وسط وابل النيران.

(كيرزون، قصص الأسفار، الصفحات ١٤٨-١٤٩)

واصل الركب طريقه الى المدينة حيث كان جميع السكان قد خرجوا لتحيته، وارتفعت زغاريد النساء ترحيباً بالضيوف. وعقد الشيخ مبارك اجتماع مع الضيوف في الطابق الأول من القصر الذي وصفه كيرزون بأنه "عبارة عن بناء متواضع شيد في معظمه من الطوب المجفف في الشمس ويطل على زقاق أو شارع من الشوارع الشديدة الضيق بالمدينة".

ومثل الكثيرين غيره من الزائرين، تولد في اللورد كيرزون انطباع حسن عن الشيخ مبارك، فكتب عنه يصفه بأنه "بلا شك أكثر الشخصيات التي قابلتها في الخليج رجولة وقوة"

وقد انقطعت المناقشات بينهما فجأة عندما علت الصيحات والمعمعة في الخارج، إذ كانت الجياد التي لم تألف الربط في العربات قد أخذت ترفس العربة الفيكتوريا الى أن حطمتها واضطر اللورد كيرزون ومرافقيه الى العودة فيما بعد الى السفينة مشياً على الأقدام

وفي حين أن واجه اللورد كيرزون الانتقادات في بريطانيا حيث وصف البعض زيارته للخليج بأنها لم تزد عن "تبختر كيرزون في البركة الفارسية"، فمما لا شك فيه أن الفضل في تعميق النفوذ البريطاني في الكويت وغيرها من إمارات الخليج قبل الحرب العالمية الأولى يعود للورد كيرزون ولمساعده القدير بيرسي كوكس الذي شغل منصب المقيم البريطاني في الخليج من عام ١٩٠٤ إلى عام ١٩١٣، واشتهر بأنه أمسك

أعلى يمين: الشيخ مبارك (مرتدي الثوب المظلم) ينتظر نزول اللورد كيرزون والوفد المرافق له الى الشاطئ للترحيب بهم، في نوفمبر ١٩٠٣

أعلى: اللورد كيرزون أثناء ركوب العربة من نوع الفيكتوريا التي أقلته والشيخ مبارك الى مدينة الكويت على بعد ثلاثة أميال، نوفمبر ١٩٠٣



تبدو الشراسة على هؤلاء الفرسان وقد شهروا الرماح والبنادق وهم في الواقع قوة الحراسة المتحمسة التي رحبت باللورد كيرزون والوفد المرافق له ترحيبا مهيبا لا ينسى

زمام شؤون المنطقة بقبضة من حديد في قفاز من حرير

ويبدو أن كيرزون نفسه لم يلتقط الصور الفوتوغرافية في الكويت. بل يرجح أن أحد ضباط البحرية هو الذي التقط تلك الصور التي نتجت عن الرحلة والمطبوعة على هذه الصفحات.

والمعروف أن اللورد كيرزون ظل طيلة حياته شديد التحمس للتصوير الفوتوغرافي. وبدأ في مطلع تسعينيات القرن الماضي يستعمل واحدة من كاميرات كوداك الجديدة التي طورها جورج إيستمان. وساهمت إلى حد بعيد في تخفيض تكلفة وتعقيد التصوير الفوتوغرافي بحلول نهاية القرن. ولاقت هذه الكاميرات السهلة الاستخدام رواجاً واسعاً بفضل استخدام الفيلم السليولويدي الملفوف (والذي مكن مستعمل الكاميرا بعد عام ١٨٩١ من تركيب الفيلم وإزالته منها في ضوء النهار). واجتذبت إلى التصوير مئات الآلاف من المتحمسين الجدد، بمن فيهم بعض ضباط البحرية البريطانية الذين أوكلت إليهم مهمة صيانة أمن الخليج.

هيرمان بورخاردت، ١٩٠٣

زار الرحالة الألماني هيرمان بورخاردت الكويت في شهر ديسمبر عام ١٩٠٣. كان بورخاردت من أبناء أسرة تجارية ثرية في برلين، وتمتع بالإمكانيات اللازمة للقيام بأسفاره الطويلة في مناطق نائية من العالم قلما زارها غيره من الأوروبيين. فبعد أن أمضى هيرمان بورخاردت عدة سنوات في العمل بشركة والده ولم يجد فيها ما يروي طموحاته، شرع ينتهز كل فرصة سانحة للسفر، حيث ذهب إلى أقصى أركان آسيا وشمال أفريقيا والشرق الأوسط وأستراليا. وخلال هذه الفترة تنامى لديه اهتمام خاص بالشرق الإسلامي.

وبعد وفاة والده عام ١٨٩٠، التحق هيرمان بورخاردت بمعهد الدراسات الشرقية ببرلين لينهل المزيد من العلم عن المناطق التي اهتم بها، وتخرج من المعهد عام ١٨٩٢ وقد اكتسب معرفة جيدة باللغة العربية واهتماماً عميقاً بعلم الإثنوغرافيا.

وقد استقر به المطاف في دمشق، التي اتخذها قاعدة ينطلق منها في أسفاره الواسعة في سوريا والعراق وإيران وشرق أفريقيا والجزيرة العربية. وبالإضافة إلى رحلته في الخليج في الفترة ١٩٠٣-١٩٠٤، قام بعدة رحلات في اليمن وهناك لقي مصرعه عام ١٩٠٩. وبجانب تفوقه العلمي، كان بورخاردت مصوراً قديراً، أنتج معظم صوره الفوتوغرافية على ألواح النيجاتيف الزجاجية.

كانت زيارة بورخاردت إلى الكويت التي دامت أربعة أيام جزءاً من رحلة طويلة قام بها على الساحل الشرقي للجزيرة العربية، بدأت في البصرة وانتهت في مسقط. ولكي يرى الساحل بأكمله، سافر بورخاردت على متن المراكب المحلية الصغيرة، نابذاً راحة السفن البخارية المنتظمة مفضلاً عليها فرصة مشاهدة أماكن جديدة ومتابعة حياة البحارة والركاب على متن المراكب المحلية. وعندما نزل من السفينة (من نوع البوم) في الكويت يوم ١١ ديسمبر عام ١٩٠٣، اتجه فوراً لزيارة الشيخ مبارك، ووجده في مجلسه الصباحي المعتاد بالسوق. فاستقبله الشيخ استقبالاً حسناً وانتدب أحد رجاله ليصطحب بورخاردت ويرشده حول المدينة.





أعلى: هيرمان بورخاردت في صنعاء باليمن قبل وفاته في عام ١٩٠٩ بفترة وجيزة. ومن المرجح أن المعدات الفوتوغرافية التي حملها بورخاردت معه تضمنت حامل وكاميرا متقدمة قابلة للطي تستعمل ألواح النيجاتيف الزجاجية المنصفية
بورخاردت

يمين: الشيخ مبارك في صورة بعدسة بورخاردت، ويرجح أنه التقطها في عصر اليوم الحادي عشر من ديسمبر سنة ١٩٠٣ وذلك عندما دعاه الشيخ مبارك إلى قصره حيث جلسا في حجرة واسعة مؤثثة على الطراز الفرنسي وقد علقت على جدرانها صور الملكة فيكتوريا والملك إدوارد السابع. وقد جرت المناقشات بين الشيخ مبارك وضيفه حول عدة أمور من ضمنها خط سكة حديد بغداد. وقد تأثر بورخاردت كثيراً بالشيخ مبارك وكتب عنه يقول: "كان يبدو أنه عظيم الاطلاع ... ومن ضمن الشيوخ الذين التقيت بهم خلال أسفاري كان الشيخ مبارك هو الوحيد الذي تحيط به هيبة الملك"



مدرب صقور الشيخ مبارك
بورخاردت، ١٩٠٣

أعلى يسار: سوق الفحم بالكويت. كان الفحم ينقل إلى السوق مباشرة من السفن الراسية في الميناء، حيث كان معظمه يستورد من إيران. وقد ذكر بورخاردت أن منطقة السوق بأسرها كانت كثيراً ما تعج بالحمير والجمال حيث تحمل بسلال مصنوعة من سعف النخيل محملة بالفحم. وقد كانت الكويت في تلك الفترة تستورد كافة احتياجاتها من الوقود، باستثناء بعض الخشب المحلي
بورخاردت، ١٩٠٣

يسار: مراكب راسية في ميناء الكويت ومنها سفينة بضائع من نوع البغلة أو الغنجة (يسار). وقد ذكر بورخاردت أن الغالبية العظمى من سفن الكويت الشراعية كانت تستخدم في الغوص وراء اللؤلؤ في مياه البحرين خلال موسم الصيف، وترسو خلال بقية أشهر السنة على الساحل إلى أن يبدأ الموسم ويعود الرجال إلى المدينة من المناطق الداخلية ومن رحلات التجارة البحرية
بورخاردت، ١٩٠٣

عند عودته الى القصر وجد بورخاردت أن مستضيفيه قد أعدوا له غرفة فسيحة ومريحة، كما أشار الى أنهم عاملوه بحسن وكرم. وفي المساء التقى مرة أخرى بالشيخ مبارك وسمع منه بعض المعلومات عن زيارة اللورد كيرزون الأخيرة، كما أخبره الشيخ مبارك عن زيارة قام بها ثلاثة من الألمان جاءوا للبحث في إمكانية مد سكة حديد بغداد إلى الكويت، وكان ضمنهم القنصل العام في إستنبول.

لقد بقيت لنا بعض من لوحات النيجاتيف الزجاجية التي أنتجها بورخاردت في الكويت، بما فيها صور ممتازة لسوق الفحم، ومدرب الصقور الخاص بالشيخ مبارك، ومجموعة من مراكب اللؤلؤ المربوطة في مرفأ المدينة.

وقد وصف بورخاردت الكويت التي زارها بأنها "... مدينة قائمة على رقعة أرض واسعة وتضم حوالي ثلاثين ألف نسمة. وتتميز شوارع المدينة بالنظافة، حيث لاحظت أنها تكنس بانتظام وترش بالماء في الصباح الباكر. ويقوم الشيخ مبارك بتفقد المدينة بنفسه عدة مرات كل يوم ... والأمن هو الأولوية القصوى ... وتتألف الأنشطة الاقتصادية الرئيسية للسكان من الغوص وراء اللؤلؤ والملاحة وبناء السفن".

ولا شك أن هيرمان بورخاردت شعر ببعض الحزن وهو يودع الشيخ



مبارك، ثم يصعد على متن سفينة من نوع البوم لمواصلة جولته على ساحل الجزيرة العربية.

البحرية البريطانية ترفع رايتها، ١٩٠٤-١٩١٢



كانت القوات البحرية البريطانية سريعة في ادراك أهمية التصوير الفوتوغرافي وقد ورثنا عدداً من الصور النادرة للكويت التقطها ضباط سفن البحرية التي شاركت في دوريات منتظمة بالخليج وموانئه خلال السنوات الأولى من القرن العشرين

احتلت البحرية البريطانية طيلة القرن التاسع عشر طليعة التقدم العلمي والتقني الذي واكب استبدال السفن الشراعية القديمة بالسفن البخارية. وقد أنشئت شعبة هندسية بالقوات البحرية الملكية عام ١٨٣٧، وافتتحت مدرسة للمدفعية البحرية عام ١٨٤٠، كما ارتفع مستوى احتراف وتعليم الضباط في الكلية البحرية الملكية القائمة في غرينتيتش. وازداد عدد دراسات المسح الهيدروغرافي التي تجريها البحرية الملكية، بل وتبنت بنفسها بعض الحملات العلمية.

وفي عام ١٨٤٩ قام السير جون هيرشيل (John Herschel)، وكان أحد رواد التصوير الفوتوغرافي، بتحرير "دليل الأميرالية للبحث العلمي"، الذي اشتمل على فصول مختلفة كتبها بعض من القيادات العلمية المعاصرة وشرحوا فيها بالتفصيل الكيفية التي يمكن بها لرجال البحرية المساهمة في المجهود العلمي باتباع الأساليب الدقيقة في الملاحظة والتسجيل. وقد اكد هذا الدليل في كافة أجزائه على الأهمية الفائقة لدور السجلات المرئية في البحث العلمي، ولذلك ليس من المدهش أن ضباط البحرية كانوا من أوائل من حمل الكاميرات، وبصفة خاصة بعد افتتاح الكلية البحرية الملكية الجديدة في دارتموث بانجلترا عام ١٩٠٥ حيث جرى تدريس التصوير الفوتوغرافي ضمن المناهج الدراسية للضباط.

ونحن نعلم بوجود صور التقطها ضباط ثلاث من سفن البحرية قبل الحرب العالمية الأولى وهي: انفستيغيتر (١٩٠٤-١٩٠٥) ولابوينتغ (١٩٠٧-١٩٠٩) وهايفلاير (١٩١٢).

نرى في وسط هذه المجموعة من الكويتيين والبريطانيين على الشاطئ بيرسي كوكس الذي يرتدي قبعة ويمسك بيده عصى للمشي. وعلى اليمين احد سفن اللؤلؤ الكويتية الشهيرة من نوع البتيل بمقدمته المتميزة
ايه. ان. غولدسميث، ١٩٠٧-١٩٠٩







يسار: صورة نقاقة في الكويت التقطها ضابط بريطاني على متن السفينة لفستيخيتور، والمرجح أن ذلك تم إبان زيارتها للكويت في ١٩٠٤-١٩٠٥.
السفينة البريطانية لفستيخيتور

يسار: الشيخ مبارك وبيرسي كوكس يحاوران الجسر بين القسم القديم بقصر السيف المطل على الشاطئ والمبنى الجديد المشيد من الطوب المحروق وهو نفس الجسر الذي ظهر في صورة تروتمكير من عام ١٩١٢ وقد كان كوكس المقيم السياسي البريطاني في الخليج في الفترة ١٩٠٤-١٩١٣.
إيه. آر. غولدسميث، ١٩٠٧-١٩٠٩

أقصى اليسار: التقط هذا المشهد لشاطئ الكويت من قصر السيف في أبريل ١٩١٢ في مناسبة تقليد الشيخ مبارك وسام إمبراطورية الهند برتبة الفارس القائد.
السفينة البريطانية هايفلاير، سنة ١٩١٢

مقابل: الشيخ مبارك يعقد مجلس في الهواء الطلق وهو جالس على ركن مصطبة ويحيط به وجهاء الكويت ورجلان مجهولي الهوية من الموظفين البريطانيين. ويرجح أن هذه الصورة العالية الجودة بعدسة اللفتننت كوماندر إيه. آر. غولدسميث وهو ضابط بالسفينة البريطانية اليوبيع في الفترة ١٩٠٧-١٩٠٩ حين توقفت في الكويت. ويلاحظ أن الرجل المسن الجالس إلى أقصى اليمين في الصف الخلفي قد ظهر أيضا في صورة الكابتن شكسبير التي تضم الشيخ مبارك وآل سعود والتقطت في عام ١٩١٠.
إيه. آر. غولدسميث، ١٩٠٧-١٩٠٩





أعلى: عندما تقلد الشيخ مبارك الوسام البريطاني، تضمنت المناسبة قيام حرس شرف من قوات المارينز المشكين بإطلاق ١٩ طلقة مدفع لتحيته وقد كان وسام إمبراطورية الهند لرتبة الفارس القائد بمثابة الرد البريطاني على منح السلطان العثماني الوسام المجيدي إلى الشيخ مبارك قبل ذلك ببضعة شهور، عندما كان رونكيير بالكويت

السفينة البريطانية هايفلاير سنة ١٩١٢

في يوم ١٦ إبريل ١٩١٢، حين كان الكابتن شكسبير في منصب المعتمد السياسي، وبعد أقل من شهرين على مغادرة البحار الدنمركي باركلاي رونكيير للكويت، تم تصوير الكويت بأسلوب رسمي أكثر، وذلك عندما قام الأميرال السير ألكسندر بثل (Bethell) القائد العام للبحرية المتجهة في المياه الشرقية بزيارة الكويت على متن السفينة هايفلاير لتقليد الشيخ مبارك وسام امبراطورية الهند لرتبة الفارس القائد. وقد كان الشيخ جابر بن مبارك والكابتن شكسبير في استقبال الأميرال عندما نزل إلى الشاطئ واصطحباه إلى قصر السيف والذي يظهر في الصورة

السفينة البريطانية هايفلاير سنة ١٩١٢

الكابتن وليام شكسبير ١٩٠٩-١٩١٤

تعتبر الصور الفوتوغرافية التي التقطها الكابتن وليام شكسبير من أشهر صور الكويت المبكرة المعروفة لنا اليوم. كان الكابتن شكسبير يحتل مناصب قنصلية في بندر عباس ومسقط قبل أن يصل الكويت عام ١٩٠٩ ليشغل منصب المعتمد السياسي البريطاني فيها حتى عام ١٩١٤، وهو منصب كان قد أنشئ عام ١٩٠٤ بعد زيارة اللورد كيرزون. وكان شكسبير يتميز بأنه رجل متعدد المواهب نبغ في اللغات والفروسية والبحرية والاستكشاف والتفاوض كان رجل فعل وانجاز على سائر الأصعدة.

انتهز الكابتن شكسبير كل فرصة لاستكشاف وتسجيل المناطق التي زارها. وبفضل تمكنه المبكر من علم الكيمياء وفن الرسم، نجح شكسبير في تنمية مهاراته في مجال التصوير الفوتوغرافي وقد استخدم كاميرا تعمل بلوح نيجاتيف كبير كانت ملائمة بصفة خاصة لالتقاط الصور البانورامية الواسعة. وفيما بعد امتلك كاميرا طراز السينيات من صنع هاوتون. وهي كاميرا صغيرة قابلة للطي تستخدم الأفلام النيجاتيف. والقيود الوحيدة التي واجهها في التصوير كانت كمية المعدات التي يمكنه حملها في رحلاته الصحراوية. وكثيراً ما كان يمضي أمسياته في المعسكرات في محاولة لتحميض النيجاتيف باستعمال "حوض كوداك للتحميض". وهي عملية محفوفة بالصعوبات بسبب الحرارة الشديدة وندرة المياه النظيفة.

تمكن شكسبير خلال السنوات الخمس التي أمضاها في الكويت من التقاط عدد كبير من الصور الخالدة للمدينة نفسها، اضافة إلى مجموعة مشاهد ممتازة للميناء عكست حبه للبحر والملاحة. ولكن ولعه الأشد كان مخصصاً لاستكشاف الصحراء، وسرعان ما تملك صقراً جيد التدريب اسمه شلوى وعدداً من الكلاب السلوقية، وكان يأخذها معه في رحلاته إلى عمق الأراضي الكويتية حيث كان يتوقف أحياناً لزيارة شيوخ القبائل وفي بادئ الأمر تسببت كاميرته في بعض الرعب بسبب جدتها فكثيراً ما كان الرجال الذين يلتقي بهم يلوذون بالفرار ويختبئون وراء ساتر بمجرد أن يروها. ومع ذلك يبدو انه بصفة عامة لم يواجه عداوة جادة لعمله الفوتوغرافي.



أعلى: الكابتن وليام هنري إرفاين شكسبير



أعلى يمين: قصر الشيخ مبارك في صورة التقطها شكسبير في الفترة ١٩٠٩-١٩١٣، وعلى الرغم من أن العلم العثماني كان يرفرف بصفة روتينية معتادة على القصر إلا أن ذلك كما أشار شكسبير لم يكن يعني شيئاً بالنسبة للصلاحيات المطلقة التي تتمتع بها تركيا في الأراضي الكويتية
شكسبير ١٩٠٩-١٩١٣



يمين: قصر الشيخ مبارك الذي كان جديداً عام ١٩٠٩ حين التقطت هذه الصورة ويعرف باسم قصر السيف
شكسبير ١٩٠٩

إذا أخذنا في الحسبان رحلة قصيرة الى أراضي الكويت الداخلية قام بها عام ١٩١٢، يكون الكابتن شكسبير قد أجرى سبع رحلات استكشافية في شرق ووسط الجزيرة العربية منذ عام ١٩٠٩. وكانت أعظم وآخر رحلاته هي عبور شبه الجزيرة العربية من الخليج العربي إلى السويس مروراً بالرياض عام ١٩١٤ وفي العام التالي عاد شكسبير إلى الجزيرة العربية في منصب "ضابط سياسي في مهمة خاصة"، وقتل في معركة جراب بنجد وهو بصحبة قوات ابن سعود. وعادة ما قام شكسبير بهذه الرحلات في فصل الشتاء وجمع فيها بين العمل السياسي والاستكشاف.

في عام ١٩٠٩ استكشف شكسبير حوالي ٢٠٠ ميل من الأراضي الواقعة الى الجنوب من خليج الكويت وفي عام ١٩١٠ زار مناطق ابعد من ذلك جنوبا، فمر على بئر الصفاة، ومن هناك اتجه صوب الشمال الغربي إلى حفر الباطن ثم اتجه بمحاذاة الباطن الى حليبة وما بعدها، ومنها جنوبا الى الجهراء. وقد بقي شكسبير في هاتين الرحلتين داخل الحدود التي اعترفت بها بريطانيا وتركيا عام ١٩١٣ باعتبارها نطاق نفوذ الشيخ مبارك. أما اليوم فإن قسماً من المسار الذي قطعه شكسبير (وخاصة في رحلة عام ١٩١٠) يقع داخل المنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية، وكما رأينا، فإن ذلك الوضع يرجع إلى تحكيم السير بيرسي كوكس على الحدود في مؤتمر العقير عام ١٩٢٢

كان الطموح الأعظم للكابتن شكسبير هو اقامة علاقات مع الأمير عبد





أعلى: دار المعتمد السياسي البريطاني في الكويت عام ١٩٠٩، عندما وصل الكابتن شكسبير الى الكويت في ذلك العام، اقام في هذا المنزل المطل على الشاطئ (وكان يملكه أحد التجار) وكان المعتمد السابق، نوكس، قد اتخذه مقراً سكنياً للمعتمد السياسي البريطاني، فظل كذلك حتى عام ١٩٣٦، حين تم انجاز بناء المبنى الجديد المخصص لهذا الغرض، وهو اليوم مقر السفارة البريطانية بالكويت. أما المنزل القديم فصار مقر إقامة أسرة ديكسون حيث مكثوا فيه حتى رحيل السيدة (فيوليت ديكسون) من الكويت عام ١٩٩١ والمبنى اليوم بانتظار ترميمه وافتتاحه كمكان عام مكرس لعرض تاريخ العلاقات الكويتية البريطانية
شكسبير ١٩٠٩

الوسط: مرافقو الكابتن شكسبير من أبناء البلد أثناء رحلته في أراضي الكويت الداخلية في شهر نوفمبر ١٩٠٩.
شكسبير ١٩٠٩

يسار: ميناء الكويت في ابريل ١٩١١ كانت مراكب البتيل التي تظهر هنا بمقدمتها المميزة أبرز مراكب أسطول اللؤلؤ الكويتي
شكسبير ١٩١١

مقابل: مجلس أحد الشيوخ في صبرة الواقعة في الجنوب الشرقي من مدينة الكويت.
شكسبير مارس ١٩١٠



العزيز بن سعود، حاكم الرياض والنجم الصاعد في وسط الجزيرة العربية، كما تطلع الى زيارة الرياض نفسها. وكان شكسبير قد التقى بالأمير ابن سعود في الكويت عام ١٩١٠ والتقط له صورة شهيرة. وفي رحلته عام ١٩١١ ذهب الكابتن شكسبير إلى آبار ثاج، التي كانت تعتبر من الناحية القانونية ضمن إقليم الأحساء الخاضع للعثمانيين، وهناك عقد اجتماعاً مع الأمير ابن سعود.

لقد كان شكسبير يدرك خصائص القادة الكبار وسماتهم ويتعرف عليها حين يلتقي برجل يتميز بها. ولهذا روج بنشاط للأمير ابن سعود باعتباره حليفاً محتملاً ضد الأتراك عند اندلاع الحرب العالمية الأولى. ويبدو أن الاعجاب كان متبادلاً بين الرجلين. فبعد سنوات عديدة سأل غلوب باشا (Glubb) الملك عبد العزيز بن سعود عن أعظم رجل غير مسلم التقى به الملك، فقال جلالته بلا تردد: "شكسبير". ولكن في بريطانيا نفسها، غلب رأي وزارة الخارجية على رأي وزارة الهند، ورمت بريطانيا بثقلها وراء الشريف حسين حاكم الحجاز ونظمت معه الثورة العربية بمساعدة من "لورنس العرب".



إن الصور التي التقطها شكسبير لميناء الكويت لا مثيل لها. وفي هاتين الصورتين سجل شكسبير المشهد من موقعه بدار المعتمد السياسي، حيث نرى الحركة البحرية بالسفن الكبيرة من نوع البوم والبغلة أو الغنجة وكذلك مراكب أصغر من نوع السنبوك والشوعي وغيرها من مراكب الميناء. شكسبير، أكتوبر ١٩١١



باركلاي رونكيير، ١٩١٢



باركلاي رونكيير في عام ١٩٢٦ أثناء رحلته في شبه الجزيرة العربية رونكيير، ١٩١٢

ولد باركلاي رونكيير عام ١٨٨٨، وكان الابن اليتيم لعالم النبات الدنمركي الشهير البروفيسور كريستن رونكيير (Christen Raunkoaer). وقد ساعد باركلاي الشاب والده في عدة مشاريع بحثية مختلفة، بما في ذلك بعثة علمية قاما بها إلى تونس عام ١٩٠٩، وسرعان ما نمى اهتمامه الخاص بالجغرافيا الاقتصادية والاقتصاد الزراعي

كانت الجمعية الجغرافية الملكية الدنمركية قد بدأت تفكر أيامها في إمكانية القيام ببعثة علمية لاستكشاف وسط جنوب شبه الجزيرة العربية لتكون بمثابة بعثة تابعة - وإن كانت متأخرة كثيرا - للبعثة الاستكشافية التاريخية التي قام بها المستكشف الدنمركي نيبوهر ومرافقيه في القرن الثامن عشر وانتهت بكارثة. وقد طلب من رونكيير أن يقوم باستطلاعات أولية لساحل الجزيرة العربية الشرقي الذي لم يكن معروفاً كثيراً في تلك الحقبة، وذلك لاختيار موقع تقام عليه قاعدة للبعثة المزمعة. وبعد الحصول على تصريح من السلطات العثمانية للسفر في منطقة الأحساء، غادر رونكيير الدنمرك في شهر نوفمبر ١٩١١ متجها إلى الخليج عن طريق إسطنبول ونيرسين ودمشق والفالوجة وبغداد، حاملاً معه كمية متواضعة من المعدات العلمية، وكتب عن ذلك فيما بعد يقول

في ظل انتشار التعصب الشديد وكراهية الأجانب في شرق الجزيرة العربية، تقرر أن تكون المعدات والأجهزة على أبسط صورة ممكنة، وقد وفرت لي الجمعية الجغرافية الملكية الدنمركية المعدات اللازمة لتخطيط طريقي، ووفر قسم حدائق علوم النبات بالجامعة كل ما احتجت إليه لجمع النباتات، بينما وافق صندوق كارلزبرغ الخيري على منحي الأموال اللازمة لشراء معدات فوتوغرافية من نوعية ممتازة

لقد كانت التجهيزات بسيطة لمثل هذه الرحلة، ولكن ثبت مع ذلك أنها كانت أكبر مما هو ملائم، وبعد بعض المحاولات، تعين التخلي تماما عن فكرة جمع النباتات، بينما استحال بالتدريج تسجيل قراءات الحرارة والضغط، ولم يعد بالإمكان استخدام جهاز التصوير إلا بمجازفة كبيرة وفي لحظات خاطفة بعيداً عن الأبصار

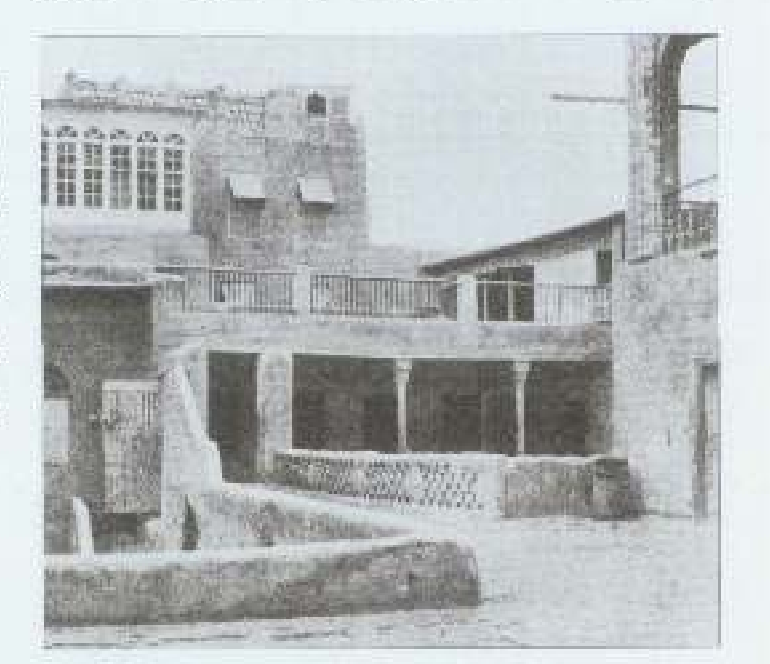
وصل باركلاي رونكيير الى البصرة يوم ٢٢ يناير ١٩١٢ حيث لقي استقبالاً حسناً ليس فقط من السلطات العثمانية ولكن أيضا من القنصل الروسي والبعثة الطبية التبشيرية الأمريكية، وشركة ونكهاوس (R. Wonckhaus and Company) الألمانية. ولما اضطرته الأوضاع السياسية المضطربة في الأحساء إلى التخلي عن خطته الأصلية بمواصلة رحلته عن طريق البحرين ومنها الى شرق الجزيرة العربية، قرر بدلاً من ذلك الذهاب إلى الكويت وهو يحدوه الأمل أن خطاب التوصية الذي حصل عليه من الأتراك سيقنع الشيخ مبارك بالسماح له بالسفر باتجاه الجنوب.

وصل رونكيير الى الكويت على طريق القوافل المار بالزبير، التي كانت مكانتها بالنسبة لتجارة الصحراء مثل مكانة الكويت بالنسبة لتجارة الخليج: مدينة في الجزيرة العربية تعتبر نجدية أكثر منها عراقية، وتقع اسمياً داخل دائرة النفوذ العثمانية ولكنها في الواقع خارجها لأسباب عملية، مما يسمح لقوافل التجارة الوافدة من وسط الجزيرة العربية بمواصلة طريقها في حرية شبه تامة من النظم المرهقة التي تفرضها تركيا على التجارة، بما في ذلك الرسوم الجمركية. وبعد تجاوز الزبير مر رونكيير على صفوان، وهي قاعدة عسكرية صغيرة بها عشرة جنود أتراك قال عنها إنها "آخر نقطة تخضع للإدارة التركية النظامية قبل الوصول إلى الأحساء". ثم عرج رونكيير على الجهراء التي ذكر أن بها بعض الزراعة البسيطة، ومن هناك وصل الى مدينة الكويت

إن وصف رونكيير المفصل لمدينة الكويت والأحوال المحلية واجتماعه بالشيخ مبارك يتسم بدقة الملاحظة والفهم وشدة الحيوية والواقعية، ويحتلر أعظم جزء في كتابه برمته، بل ويعتبر أفضل ما كتبه أي شخص عن الكويت قبل الحرب العالمية الأولى. ومن ناحية أخرى فإن الصور القليلة التي التقطها في ذلك الوقت قد ساءت حالتها حتى لم يعد في استعمالها جدوى. أما الصور المطبوعة هنا فقد أخذت من الطبعة الأصلية باللغة الدنمركية للكتاب الذي دونه عن أسفاره ونشره في

كوبنهاجن عام ١٩١٣ بعنوان "عبر الأراضي الوهابية على ظهور الجمال" (Gennem Wahhabiternes Land paa Kamelryg). وقد مكث رونكيير في الكويت أكثر من ثلاثة أسابيع ووقع فريسة للمرض في آخر تلك المدة فعالجه المبشر الأمريكي الدكتور بول هاريسون إلا أنه فشل في اكتشاف أن رونكيير كان مصابا بداء السل الذي أودى بحياته بعدها بسنتين، وتدهورت بسببه صحته خلال رحلته إلى البريدة وزلفي والرياض والأحساء، ونال ذلك بطبيعة الحال من جودة كتابته بعد مغادرة الكويت.

لقد تسبب خطاب التقديم التركي الذي حمله رونكيير الى الشيخ مبارك في معاملته بريبة وتحفظ بدلاً من طمأنة حاكم الكويت الفطن الذي كان قد وضع أمن الكويت منذ سنين طويلة تحت المظلة البريطانية. ولم تنقشع هذه الغيوم ولا تبددت مخاوف الشيخ مبارك الا بفضل جهود الكابتن شكسبير ووساطته النابعة من احترامه وتقديره لرونكيير باعتباره مستكشف حقيقي، وهي خطوة جلبت على الكابتن شكسبير أشد التأنيب من رئيسه المقيم السياسي بيرسي كوكس، والذي اعتبر أن أي مسافر له صلات بألمانيا وتركيا يصبح تلقائياً في نظر المسؤولين البريطانيين محطاً للشكوك. وفي حين يمكن فهم دوافع هذا التأنيب، إلا أنه يمكن القول دفاعا عن شكسبير إنه لم يوجد اي دليل قاطع على أن رونكيير كان يعمل لحساب المخابرات الألمانية او التركية. إنما على العكس كان يشتهر بميله لثقافة الإنجليز وعاداتهم.



يمين: داخل قصر السيف.
رونكيير ١٩١٢

بل إن رونكيير كان لا يتردد أبداً في التعليق بصورة إيجابية على التفوق البريطاني كلما استدعى الحال. ونجد فيما كتبه عن الكويت مثالاً واضحاً على ذلك. كما نستشف من كلماته سخرية خفيفة من الادعاءات التركية.

إنجلترا هي الدولة الوحيدة التي لها مبعوث في الكويت، حيث يحمل ممثلها اسم "المعتمد السياسي". وليس فيها أي دليل على الوجود التركي. ومع أن الكويت تعتبر رسميا تحت سلطان الدولة العثمانية، فإن الأتراك لا يمكنهم وضع قنصل لهم هنا. بل الأدهى من ذلك أن المرء لا يجد أي موظف تركي على الإطلاق في الكويت. إن الادعاءات التركية لا تقوم إلا على أساس أن الشيخ مبارك يحمل لقب قائمقام، وأن علم الحكومة المرفرف فوق السراي أحمر اللون ووسطه هلال ونجمة باللون الأبيض.

لاحظ رونكيير ضخامة حجم التجارة في الكويت، سواء البحرية أو تلك المحمولة في قوافل برية، وقدر عدد المراكب والسفن فيها بحوالي الخمسمائة. كما ذكر ان الصبغة العربية للمدينة لم يخففها سوى عدد صغير من التجار الإيرانيين من بوشهر، وقد برزوا وسط الناس بستراتهم الزرقاء وسراويلهم البيضاء وقبعات لباد الصوف العالية. ولأن الكويت كانت محطة نهائية على خطوط تجارة الخليج والمحيط الهندي وكذلك خطوط التجارة الداخلية بالجزيرة العربية، خلص رونكيير الى أن "الكويت بلا شك هي اهم مركز تجاري على ساحل الجزيرة العربية، وذلك دون استثناء ميناء مسقط"





أعلى: الشيخ مبارك الصباح [illegible] عدسة رونكيير سنة ١٩١٢

أعلى: الجسر الذي يربط بين اثنين من مباني قصر السيف التابع للشيخ مبارك على شاطئ الكويت.
رونكيير ١٩١٢



اللورد هاردينغ، ١٩١٥



أحد أعضاء وفد اللورد هاردينغ وقد أشير إليه فقط بالأحرف P.S.V وهو يستمتع من خدمات الإنزال الخاصة التي جرت العادة على تقديمها إلى الزوار الأجانب. ويرجح أن الرجل الواقف إلى اليمين مرتديا القبعة وممسكا بعصا المشي هو بيرسي كوكس، وكان آنذاك من كبار الضباط السياسيين في قوة الحملة الهندية (د) التي كانت تتأهب لقتال الأتراك في العراق.
لورد هاردينغ، ١٩١٥

جاء اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ حاملاً معه اول توضيح حقيقي لموقع الكويت في إطار العلاقة البريطانية التركية. فالاتفاقية الأنجلوعثمانية لعام ١٩١٣ كانت محاولة لتحديد دوائر النفوذ البريطانية والعثمانية بالجزيرة العربية. وقد اكتسب منها الشيخ مبارك اعتراف القوتين بدائرة نفوذ واسعة له على قبائل شمال شرق الجزيرة العربية، ولكنه صدم حين اكتشف أنه يتعين عليه دفع ثمن كبير للفوز بتوضيح وضع الكويت: فقد اشترطت الاتفاقية الاعتراف رسميا بأن الكويت تعتبر جزءاً من ولاية البصرة، وإن كانت جزءا مستقلاً، ومنحت العثمانيين حق تعيين وكيل في الكويت لرعاية شؤونهم. وترك الأمر لبيرسي كوكس لتهدئة حاكم الكويت الغاضب. ولحسن الحظ، لم يتم التصديق أبدا على الاتفاقية. حيث كان اندلاع الحرب العالمية الأولى بمثابة إنقاذ لماء الوجه للطرفين. وقد خلص البريطانيون الى أن تركيا ستدخل الحرب على الجانب الألماني، فأعدوا العدة لغزو العراق بحراً. وقد أيد الشيخ مبارك بريطانيا العظمى وفي المقابل اعترفت الحكومة البريطانية نهائياً وعلى نحو جلي باستقلال حكومة الكويت في ظل الحماية البريطانية. وسرعان ما تبع ذلك حصول الشيخ مبارك على اعتراف الحكومة البريطانية رسمياً بالدعم الذي قدمه.

كان اللورد هاردينغ أحد الأجانب القلائل الذين تركوا للأجيال التالية صورا للكويت ابان الحرب العالمية الأولى، وقد شغل منصب نائب الملك البريطاني في الهند (أي حاكمها) بين عامي ١٩٠٩ و١٩١٦. ووصل إلى الكويت يوم ٣١ يناير ١٩١٥ على متن السفينة نورثبروك (Northbrook)، حيث كان في استقباله يخت الشيخ مبارك ومعه سفينتين بريطانيتين وعلى الشاطئ كانت صواري الأعلام بدار المعتمد السياسي البريطاني وقصر الحاكم تحمل كل ما يمكن رفعه عليها من أعلام، وكانت المدينة نفسها مزينة بأقواس النصر وعند وصوله تلقى اللورد هاردينغ زيارة ترحيب رسمية من الشيخ جابر واللفتنانت كولونيل غراي (Grey)، خليفة الكابتن شكسبير، وبعد ذلك قام بجولة قصيرة وصولاً إلى الطرف الشرقي للمدينة

أقيم في اليوم التالي أول حفل رسمي عندما صعد الشيخ مبارك والشيخ عبد الله حاكم البحرين على متن السفينة نورثبروك لتلقي الأوسمة من اللورد هاردينغ تقديراً من الملك لتعاونهما مع بريطانيا. وفي عصر نفس اليوم استقبل الشيخ مبارك في قصره اللورد هاردينغ بصحبة حرس شرف من قوة المارينز الملكية، ثم رافقه في جولة سياحية بالسوق عاد بعدها الضيف إلى السفينة مروراً بدار المعتمد السياسي. وانتهت زيارته في صباح اليوم التالي بجولة في خليج الكويت لتفقد محطة الفحم التابعة للشيخ مبارك ومستشفى البعثة التبشيرية الأمريكية الجديدة. والصور الموضحة هنا مأخوذة من ألبوم الصور الشخصي للورد هاردينغ، وأغلب الظن أنه التقطها بنفسه



أعلى: دار المعتمد السياسي البريطاني في الكويت، وكان يحتلها اللفتنانت كولونيل غراي حين التقطت هذه الصورة في نهاية شهر يناير ١٩١٥ وكان المعتمد السابق الكابتن شكسبير قد عين في وظيفة ضابط سياسي في مهمة خاصة، ولقي حتفه قبل التقاط الصورة بأسبوع واحد في معركة جراب في نجد، حيث كان قد انضم إلى قوات عبد العزيز بن سعود في مواجهة ابن الرشيد شيخ الحائل. لورد هاردينغ، ١٩١٥

يمين: الشوارع مكتظة بالكويتيين خارج قصر الشيخ مبارك. لورد هاردينغ، سنة ١٩١٥







أعلى يمين: سوق الكويت، وفيه المتاجر الدائمة والأكشاك المؤقتة.
لورد هاردينغ ١٩١٥

أعلى يسار: عدد من الكويتيين، ويبدو أنهم لم يعترضوا على تصويرهم.
لورد هاردينغ ١٩١٥

يسار: كويتيون يقفون أمام الحرسة في مجموعة خارج دار المعتمد السياسي.
لورد هاردينغ ١٩١٥

مقابل: الحمير البيض القوية التي كان استخدامها منتشراً في موانئ وواحات شرق الجزيرة العربية، وكانت وسيلة المواصلات الرئيسية داخل مدينة الكويت كما كانت مفيدة بصفة خاصة في الرطا حين كانت تستخدم في تحميل وتفريغ المراكب والسفن.
لورد هاردينغ ١٩١٥





الطبيب بول هاريسون مع بعض المرضى في الصيدلية بالكويت عام ١٩١٣ وقد كتب هاريسون فيما بعد عدداً من الكتب عن الجزيرة العربية، ومنها كتاب ممتاز عنوانه: العربي في داره

كانت احدى الجماعات التي استخدمت التصوير الفوتوغرافي بصورة متواصلة وفعالة هي جماعة المبشرين النصرانيين، الذين جابوا أصقاع العالم واستقروا بمختلف بقاعه، وكثيراً ما لعبوا دور المضيف والمرشد للمسافرين والرحالة والبعثات العلمية الزائرة. كان المبشرون يستخدمون دائماً الوسائل البصرية لتسجيل البيئة المحيطة بهم، كما تميز إنتاجهم من الكتب والمحاضرات والتقارير بالخصب والغزارة حيث كان الكثير منها ينتج لهدف محدد، وهو جمع التبرعات من جماعات المصلين في بلدانهم الأصلية. وكثيراً ما كان المبشرون يجيدون اللغات الأجنبية، وصار البعض منهم يهتم بعلم التراث الشعبي (الاثنولوجيا) مستغلين مهاراتهم في وضع السجلات المدونة والمصورة عن عادات الشعوب التي عاشوا وعملوا وسطها

كانت الكويت ومعها معظم مناطق شبه الجزيرة العربية قد بقيت في بادئ الأمر في عزلة شبه تامة عن هذه الأنشطة التبشيرية النصرانية ولكن خلال السنوات الأولى من تسعينيات القرن التاسع عشر بدأ بعض رواد البعثة العربية للكنيسة الإصلاحية الهولندية بأمريكا يوجه اهتمامه صوب المنطقة العربية التي اعتبروا أنها ظلت "مهملة" حتى ذلك الحين

تأسست البعثة التبشيرية للكنيسة الإصلاحية الهولندية في مدينة نيوبرنزويك عام ١٨٨٩ على يد جيمز كانتين (James Cantine) وصامويل زويمر (Samuel Zwemer) وقد اعتقد هؤلاء المبشرون الجدد في بادئ الأمر أنهم سيتمكنون من العمل بالتعاون مع بعثة كيث فولكنر (Keith Falconer) التبشيرية التي كانت قد ترسخت في عدن، ولكن كانتين وزويمر اقتنعا بعد زيارة قصيرة لعدن سنة ١٨٩١ بأن ذلك الموقع كان مطوقاً بالقيود العسكرية والسياسية لدرجة لا تلائم خططهما الطموحة، فقررا البحث عن مكان أبعد عن المألوف. فسافرا على امتداد الساحل الجنوبي لمسقط، ثم شمالاً بمحاذاة الساحل الشرقي للخليج، حيث قاما برحلات قصيرة إلى المناطق الداخلية على الطريق. وقد اختارا البصرة كموقع لأول مركز طبي تبشيري، وبحلول عام ١٨٩٣ كانا قد أسسا مركزين آخرين في البحرين ومسقط. ومن هذه المحطات قام المبشرون بجولات واسعة في أرجاء المنطقة سعياً وراء الفرص الجديدة.

وفي عام ١٩٠٢ زار صامويل زويمر الكويت وقد أعجب زويمر كثيراً بالمدينة الرائجة النشطة، وكغيره من الزائرين أدرك بسرعة أهميتها الاستراتيجية. وفي الاجتماع السنوي للبعثة المنعقد في شتاء عام ١٩٠٣، تم الاتفاق على أن تكون الكويت مقراً لمركز فرعي يتبع البحرين وسرعان ما قام زويمر بتعيين وكيلاً له في الكويت، ليعمل من متجر مستأجر في السوق. ولكن لم يكن قد انقضى على وجوده هناك سنة واحدة حتى كان الشيخ مبارك قد أبعد الرجل من أراضيه. وبدا مستقبل البعثة في الكويت مظلماً لبعض الوقت.

الا أنه في أواخر عام ١٩٠٩، استدعي طبيب من بعثة البصرة اسمه آرثر بنيت (Arthur Bennett) لعلاج الشيخ خزعل حاكم المحمرة. وأثناء وجوده بالمحمرة تم تقديمه إلى الشيخ مبارك الذي أعجب بمهارته في الجراحة فدعاه للعودة معه إلى الكويت لمناقشة إمكانية افتتاح صيدلية هناك. وبناء على ذلك قام الدكتور بنيت برفقة الدكتور فان إيس (Van Ess) بزيارة للكويت في شهر يناير ١٩١٠ تلقى خلالها هذان المبشران الاذن بافتتاح عيادة طبية، كما تعاقدوا على استئجار منزل بالمدينة

وفي الربيع التالي عاد الدكتور بنيت برفقة القس غريت بنينغز (Gerrit Pennings) إلى الكويت. وفي غضون بضعة أشهر أصبح يفتح عيادته للزائرين بانتظام كل صباح ويجري بعض العمليات الجراحية. وفي تلك الفترة ظهرت أولى الصور الفوتوغرافية التي التقطها المبشرون بالكويت في مجلة "الجزيرة العربية المنسية" (Neglected Arabia) الفصلية التي كانت تنشرها البعثة التبشيرية العربية، وذلك مع مقالة بقلم بنينغز تحت عنوان "إعادة افتتاح الأعمال بالكويت" (عدد رقم ٧٤، يوليو-سبتمبر ١٩١٠) ويظهر في تلك الصورة اثنان من صغار أبناء عائلة ابن سعود في قصر الشيخ، ويرجح أن بنينغز التقطها بنفسه حيث أنه وصف في مقالته لقاءه بمختلف أبناء أسرة ابن سعود. وفي ذلك تأكيد لروابط الكويت الوثيقة بمنطقة نجد وموقعها المثالي لإقامة العلاقات مع سكان المنطقة.

وطيلة عملهم في منطقة الخليج، كان هدف المبشرين هو استخدام الطب والتعليم لفتح الباب إلى قلوب الرجال عسى الرسالة النصرانية تلج منه، فقد كانوا مقتنعين تمام الاقتناع بأن الصرفة ستمهد السبيل لإقناع أبناء المنطقة بديانتهم النصرانية. وفي حين أن صرفتهم الإنسانية كان لها بلا جدال أثرها المفيد على حياة الكثيرين، فإن كافة الشواهد تدل على أن العرب من أبناء الحضر والبادية تقبلوا منهم العلاج الطبي شاكرين واجتنبوا رسالتهم الروحية. ومع ذلك لم ييأس المبشرون فافتتحوا المستشفيات، وأقاموا مدرسة في الكويت، وبمرور الوقت صاروا يقومون انطلاقاً من البحرين بزيارات إلى الأراضي الداخلية طالت مدن نجد نفسها وتصطبغ المقالات التي سطروها بتفاؤل بريء بشأن احتمالات اجتذاب الناس إلى ديانتهم. ولكنهم فشلوا في تحقيق أي نجاح تبشيري حقيقي. وما من شك في أن معظم المراقبين المحايدين سيتفقون مع كلمات رونكيير الساخرة التالية التي سطرها عام ١٩١٢:

> إذ يسير المرء في الشارع الرئيسي ويتجاوز سوق الفحم، يجد على الناحية اليمنى متجر الكتب التابع للبعثة الإنجيلية الأمريكية، وبداخله، على أحد جانبي منضدة المتجر المغطاة بنسخ عربية للمؤلفات النصرانية، يجلس يوماً بعد يوم رجل من المؤكد أنه يتميز بصبر عظيم، بل يجوز القول أنه فاق في صبره طاقة البشر فطوال اليوم يتدفق تيار الحياة والناس أمامه في دمدمة متواصلة، تجارة ومساومة وثرثرة، ولا يعبر أي عربي عتبة المتجر إلا نادراً.
>
> وعند ما يحدث ذلك تنقلب حالة الرجل إلى الأسوأ فالنقاش في الدين بين مبشر نصراني ومتحمس وهابي نقاش عقيم لا يثمر أية نتيجة إيجابية على الإطلاق

رونكيير، عبور الأراضي الوهابية على ظهور الجمال، صفحة ٤٩.

ومع استقرار المبشرين في محيطهم الجديد، بدأت الصور الفوتوغرافية التي التقطوها في الكويت تظهر بانتظام في مجلة "الجزيرة العربية



المنسية"، مصحوبة عادة بأوصاف تفصيلية للمدينة وللحياة اليومية فيها قبل إقامة السور الجديد حولها عام ١٩٢٠. ففي عام ١٩١٠ مثلاً كتب الدكتور بنيت ما يلي:

> إن أهل الكويت أكثر وداً ودماثة من أي ناس آخرين قابلتهم في أماكن أخرى بالخليج. ... فهم لا يتميزون فقط بالتهذيب الشديد، ولكن المدينة نفسها تختلف عن أية مدينة أخرى في الخليج، والبيوت التي شيدت على منحدر مرتفع من الحصى الرملي تتميز بالتصريف الطبيعي للمياه، ولا يندهش المرء إذ يكتشف أن مرض الملاريا لا وجود له هنا، وأن بقية الأمراض نادرة بدورها
>
> أقيمت المدينة على موقع يطل على الميناء الجيد الوحيد في الخليج، وهي تمتد من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي لمسافة حوالي ميلين بطول المرفأ، ومن البحر تمتد المباني إلى الداخل في جناحين لمسافة تربو على النصف ميل في الناحيتين. وفي الوسط



أعلى: التقطت هذه الصورة لصبيان من أبناء عائلة ابن سعود في قصر الشيخ مبارك عام ١٩١٠، وعلى الأرجح بعدسة القس بنينغز، والأغلب أنهما نفس الصبيين في الصورة التي التقطها شكسبير للشيخ مبارك وعبد العزيز بن سعود وآخرين من عائلة ابن سعود في شهر مارس ١٩١٠، وهي تظهر على الصفحة ١٥

أعلى يمين: صورة لسوق البدو بالكويت، والأرجح أن القس بنينغز هو الذي التقطها عام ١٩١٠

يقل عرض المدينة لأن الصحراء تمتد إلى داخلها وتشكل سوقاً للعرب حيث يتجمع جمهور الناس خلال النهار، فهذا المكان هو قلب المدينة، ومنه يمتد السوق ليشمل عدة شوارع تفضي الى المرفأ بينما على الجانب الآخر ضربت عشرات الخيام البدوية في الصحراء بصورة شبه عشوائية.

وعندما جئنا هنا في الصباح وجدنا عدة آلاف من العرب وهم يتبادلون البضائع في السوق وقد احضر بعضهم الجمال المحملة بخضراوات الصحراء لبيعها، ويبدو أن معظمها من نوعي الحماض والهندباء، بينما كان آخرون يحملون حزم العرفج. في حين كان بعض أهل البادية يبيع اللبن الرائب أو احد خضروات الصحراء البرية المسماة الفقع، وهي جيدة المذاق وتشبه نبات البطاطا إلى حد كبير. وفي أماكن متفرقة تناثرت قطعان الماعز السوداء والخراف، وفي مواقع أخرى تعرض الأسماك البحرية الطازجة لاستمالة الجائعين من أهل البادية

خلال السنوات الثلاث السابقة لعام ١٩١٣، كانت البعثة التبشيرية تعزز موقعها ببطء، وقد بقي القس بنينغز والدكتور بنيت فيها لبعض الوقت للإشراف على العمل الطبي والتبشيري، وأعدت الخطط لاقامة مستشفى جديد على اعلى قطعة أرض مطلة على المرفأ. وفي عام ١٩١٢ صار للبعثة في الكويت مركز كامل مستقل، وتم تعيين القس ادوين كالفيرلي (Edwin Calverley) والدكتور بول هاريسون (Paul Harrison) للعمل هناك طوال الوقت. وانضم اليهما فيما بعد الدكتور ستانلي ميلري (Stanley Mylrea). وقد كتبت اليانور (Eleanor)، زوجة القس كالفيرلي



مستشفى البعثة الأمريكية بالكويت، وقد افتتح عام ١٩١٥، والمعتقد أن هذه الصورة التقطت إبان الافتتاح.

فيما بعد مذكرات ممتازة بعنوان: "أيامي ولياليّ في الجزيرة العربية - بعثة طبية تبشيرية في الكويت القديمة".

استمرت المفاوضات مع الشيخ مبارك حول الحصول على قطعة أرض لاقامة مستشفى جديد ومنزل للطبيب، وتوصل الطرفان إلى اتفاق في نهاية عام ١٩١٣، وتم افتتاح المستشفى في نوفمبر عام ١٩١٥، وفي شهر يناير من العام التالي قام الشيخ مبارك بتفقدها، ويقال إنه أدلى بملاحظة تهكمية مفادها أن احداث الجراح كان أقرب إلى تخصصاته من معالجتها

خصص عدد مجلة "الجزيرة العربية المنسية" الصادر للأشهر يناير- مارس ١٩١٥ بالكامل للكويت وفيه كتب القس بنينغز تقريراً بليغاً عن الأنشطة التجارية في الكويت قال فيه:

إن انتعاش الكويت يرجع جزئياً الى التجارة مع المناطق الداخلية التي يستهلك سكانها كميات هائلة من الأرز والشاي والقهوة والسكر، وكل سكان نجد تقريباً يكتسون بالقماش المنتج في ولاية ماساتشوستس الأمريكية، حيث تستورد مئات الأطنان منه سنوياً إلى الكويت. ومن الأنشطة الأخرى الرائجة نقل التمر من منطقة البصرة الى موانئ الهند وجنوب وغرب الجزيرة العربية وشرق أفريقيا، حيث يغادر الكويت في شهر أكتوبر من كل عام أسطول يتألف من حوالي ثلاثين سفينة شراعية، حمولة كل منها حوالي ثلاثمائة طن، ويعود في شهر أغسطس التالي محملاً بالحطب، وأخشاب بناء البيوت والسفن. أما مصدر الثروة الرئيسي الثالث فهو مصائد اللؤلؤ التي يعمل فيها آلاف الرجال كل عام، والسيولة النقدية التي يدرها هذا النشاط هي مصدر رأس المال الذي لا يمكن بدونه ممارسة أنشطة تجارية ذات بال. ومع كل ذلك، فإنه بدون يد الحكم القوية والمتسمة بصفة عامة بالعدل والتي حظيت بها المدينة خلال السنوات الأخيرة، لكان الرخاء الراهن مستحيلاً، ولكان رأس المال قد تحول إلى مكان آخر.

وفي نفس هذا العدد من المجلة، وصف الدكتور ميلري المناسبة التي استدعي فيها لمعالج الأمير عبد العزيز بن سعود وبعضاً من رجاله، وكانوا في تلك الآونة معسكرين في الجهراء. وسرعان ما اقتنع الأمير

ابن سعود بفوائد الطب الحديث، وفكر في دعوة الدكتور ميلري إلى الرياض، حيث قال له بصراحة "سنرحب بك، ولكن بشرط واحد، وهو أن تترك شعبي وحاله فيما يتعلق بشؤون الدين". ثم تحدث عن الاسلام في نجد ومهد لكلامه بعبارة قاطعة "ان ديننا هو الدين الحق". وقد وصلت البعثات الطبية التبشيرية في نهاية الأمر إلى الرياض (كان الدكتور هاريسون أولهم، حيث وصلها من البحرين عام ١٩١٧)، وحظي عملهم الطبي بتقدير كبير، ولكنهم خضعوا بطبيعة الحال إلى رقابة دقيقة للكشف عن أية محاولة يجرونها للترويج لدينهم.

كان المبشرون الى جانب موظفي الحكومات الأجنبية هم الأجانب الوحيدين تقريباً الذين بقوا في الكويت أثناء الحرب العالمية الأولى حين كانت الكويت كثيراً ما تنقطع اتصالاتها مع بقية الموانئ الكبرى على ساحل الخليج. ورغم ما انطوى عليه عملهم من صعوبات فإنهم واصلوا تأديته بهمة ونشاط. ففي عام ١٩١٦ بدأت أعمال تشييد مقر الاقامة الثاني في البعثة. كما أنجز تشييد مستشفى للنساء عام ١٩١٩. وخلال عقد العشرينيات بدأ الأطباء يقومون بجولات أسبوعية خارج المدينة، كما اتخذت أولى الخطوات تجاه افتتاح مدرسة للبعثة في مدينة الكويت نفسها.

لا شك أن الكتابات والسجلات التي خلفها هؤلاء الرجال والنساء الرواد تشكل مصدراً ثميناً للمعلومات عن تاريخ الكويت. والصور المبكرة توضح في معظمها المبشرين انفسهم إما اثناء تأدية عملهم او في الصور التذكارية التي يظهرون فيها بتكلف وهم يرتدون الملابس العربية. ولكن كان هناك أيضاً بضعة صور لشوارع الكويت والسوق

يمين: مقر الاقامة الثاني للبعثة التبشيرية في الكويت وقد أنجز بناؤه في مارس ١٩١٦ وأقامت فيه أسرة كالفيرلي
هايمز سنة ١٩٢٤

أسفل يمين: الدكتور ميلري، وهو انجليزي عرفه السكان المحليين باسم ميريلي، ويظهر هنا مع بعض المرضى من أهل البادية خارج مقر إقامة البعثة

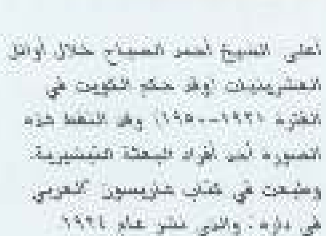
أسفل: السيدة ميلري والدكتورة أليانور كالفيرلي بديوان مراسم القادمين في مقر التبشيرية، حوالي عام ١٩٢٠





والشاطي ولالأسف فان الصور نفسها نادراً ما يصحبها تعريف يسجل محتواها. ومع ذلك تشير مقاساتها المختلفة وانخفاض جودتها النسبية إلى انها التقطت باستخدام عدد من الكاميرات المختلفة من النوع الشعبي والرخيص الثمن التي يغلب الظن أن المبشرين أنفسهم كانوا يفضلونها على غيرها. ومن المعروف أن صاموبل زويمر وجريت بنينغز وادوين كالفيرلي جميعاً استعملوا الكاميرات. ولكن لا يمكن القطع بما هو أكثر من ذلك في هذه المرحلة الى أن يتم تعريف وفهرسة مجموعات الصور الفوتوغرافية الأصلية المحفوظة في أرشيفات الكنيسة الإصلاحية في أمريكا





أعلى: الشيخ أحمد الصباح خلال أوائل العشرينيات (وقد حكم الكويت في الفترة ١٩٢١–١٩٥٠) وقد التقط هذه الصورة أحد أفراد البعثة التبشيرية. وطبعت في كتاب هاريسون "الطبيب العربي في داره" والذي نشر عام ١٩٢٤

يسار: مشهد نادر للغاية داخل أحد مساجد الكويت. حوالي سنة ١٩٢٦.



أقصى اليسار: مقاتلين من جماعة الإخوان في الكويت خلال أوائل العشرينيات وهما يرتديان ملابس الإخوان المميزة المتمثلة في الثوب القصير وعترة من القماش الأبيض ملفوفة حول عمامة الرأس. لقد كانت الكويت ميناء تجاري حيوي للمناطق الداخلية. وكان رجال الإخوان يأتون من نجد وشرق الجزيرة العربية إلى الكويت لشراء حاجياتهم كغيرهم من رجال القبائل البدوية. وتظهر هذه الصورة في كتاب هاريسون "الطبيب العربي في داره" المنشور عام ١٩٢٤



أقصى اليمين: عنوان الصورة هو "لقاء سباق الكويت العشرينيات" ولكنه يبدو أقرب إلى استعراض عسكري أو حتى عملية تعبئة عسكرية وبالتالي قد يكون تاريخه ١٩٢٨ وهي نفس سنة حادثة السفينة إمرالد وقد التقط الصورة الدكتور فان إيس، والذي زار الكويت أول مرة عام ١٩١٠ ثم عاش فيها من ١٩١٩ إلى ١٩٥٠
فان إيس

أسفل يمين: صورة عنوانها "بوابة المدينة الكويت يوم التعبئة ١٩٢٨". ومن شبه المؤكد أنها التقطت في فبراير أو مارس من عام ١٩٢٨ عندما حرست القوات البريطانية سور مدينة الكويت ضد هجوم جماعات الإخوان المنتظر
فان إيس، سنة ١٩٢٨

يمين: الشيخ أحمد الجابر الصباح، ويبدو فخوراً بابنه جابر الذي كان عمره يومها ٣ سنوات وكان الشيخ أحمد على حق في افتخاره بابنه فهو اليوم سمو الشيخ جابر الأحمد الصباح، أمير الكويت
فان إيس، سنة ١٩٢٩







أرنولد هايمز ١٩٢٤



أعلى: صورة لأرنولد هايمز التقطت في شهر يونيو ١٩٢٤ في البحرين على الأرجح.
هايمز سنة ١٩٢٤

يسار: كان هايمز يسافر بالطريقة التقليدية باستعمال جمله الظاهر هنا وعلى ظهره السرج الشمسي والشداد المجدول والأكياس ذات الشراشة، مع غطاء من جلد الغنم.
هايمز سنة ١٩٢٤

مقابل: مراكب الغوص على اللؤلؤ وقد اصطفت في مرسى الكويت خلال شهر ابريل استعداداً لبدء موسم اللؤلؤ في أواسط شهر مايو.
هايمز سنة ١٩٢٤

درس أرنولد هايمز علم الجيولوجيا في المدرسة العليا للتقنية بمدينة إيدتسيشه وفي جامعة زيوريخ، حيث تخرج عام ١٩٠٨ وبعد مواصلة الدراسات في برلين وباريس وادنبرة، قام برحلات استكشافية في شمال افريقيا وغرينلاندا، وعاد إلى زيوريخ عام ١٩٠٨ ليستلم منصب أستاذ الجيولوجيا في المدرسة العليا للتقنية بإيدتسيشه وفي الجامعة. وبعد سنتين حين كان يبلغ من العمر ٢٨ سنة، قرر ارنولد هايمز هجرة عالم الجامعات الأكاديمي والعمل كجيولوجي في مجال استخراج النفط. ومرة أخرى انطلق في أسفاره حيث ذهب إلى اوروبا وشرق آسيا والمكسيك. وفي بادئ الأمر كان مستقبله في هذا المجال يبدو مضموناً، فالنفط المستخرج في أمريكا الشمالية كان يغرق أسواق العالم في حين كان الطلب العالمي ضعيفاً وكان يلزم التغلب على المنافسة الشديدة من الشركات البريطانية والهولندية والأمريكية من أجل الفوز بأعمال التنقيب القليلة المتوفرة آنذاك.

نتيجة لذلك قرر هايمز العودة الى التدريس مرة أخرى، وأعلن أنه سيلقي سلسلة من المحاضرات حول جيولوجيا النفط خلال موسم الصيف عام ١٩٢٤. ولكن في فبراير من نفس السنة طلبت منه النقابة الشرقية والعامة وهي شركة نفط كان مقرها في لندن، القيام برحلة استطلاعية في شرق الجزيرة العربية. ولم تكن النقابة تهتم باستكشاف النفط بقدر انشغالها بالمضاربة على الامتيازات، حيث كانت تأمل بيعها إلى شركات النفط الأخرى بعد التأكد من احتمالات استخراج النفط. ووافق هايمز على عرض الشركة وسافر في الثاني من ابريل ١٩٢٤ إلى منطقة الخليج للعمل بموجب عقد مدته خمسة أشهر.

بعد أن عبر هايمز الصحراء السورية من حيفا إلى بغداد بصحبة القس صاموئيل زويمر في قافلة من السيارات أشرفت على تنظيمها شركة جديدة اسمها نيرن للنقل، سافر هايمز الى البصرة للانضمام الى الميجور فرانك هولمز وهو مهندس تعدين ومستثمر يعمل مع نقابة الشرقية والعامة في الخليج منذ عام ١٩٢٠ وكان قد نجح بالفعل في الحصول على أول امتياز نفطي للشركة من الأمير عبد العزيز، وقد عرف باسم امتياز الأحساء، حيث أبرم في مايو عام ١٩٢٣ وشمل كافة مخزون النفط والمعادن المتواجد في منطقة مساحتها حوالي مائة ألف كيلومتر مربع على الساحل الشرقي للجزيرة العربية. وقد تواصلت المفاوضات للحصول على امتيازات أخرى. وأثناء قيام هايمز برحلته الاستكشافية وافق الأمير عبد العزيز بن سعود والشيخ احمد على منح النقابة امتيازاً في المنطقة التي كان مؤتمر العقير المنعقد عام ١٩٢٢ قد توصل الى اقتراح يقضي باعتبارها منطقة محايدة. وإضافة إلى ذلك كان قد تم إحراز تقدم كبير على صعيد الحصول على اتفاق امتياز يختص بأراضي امارة الكويت بالتحديد.

انتقل هايمز على متن القارب البخاري التابع للميجور هولمز من البصرة إلى الكويت التي كانت نقطة الانطلاق لرحلته الاستكشافية وبعد أن تم تقديمه إلى الشيخ أحمد الجابر، اجتمع هايمز لأول مرة



برفاق رحلته الجدد: خمسة وعشرون رجلاً من حراس الأمير ابن سعود وعدد مماثل تقريبا من العبيد. وقد مثلوا أمامه في صفوف مرصوصة وبنادقهم في وضع الاستعداد. وبعد ذلك تجمعوا في خيمة اكتست أرضها بالسجاد، وهناك تمتع هايمز بالضيافة العربية التقليدية وانتظر الجميع وصول القافلة التي سيسافرون معها والتي اشتملت على ثلاثين



بدوياً استأجرهم هولمز وثمانية وستين جملاً تم شرائهم خصيصاً من الهفوف. كما ضم الفريق مساعد هايمز، وهو مهندس معادن بريطاني اسمه جون بوبام (John L. Popham)، وكان قد سبقه إلى المنطقة لشراء المعدات والعثور على مترجم وخدم.

اتجهت البعثة الاستكشافية جنوباً من الكويت في محاولة لتغطية كل ربوة وكل موقع وصلت التقارير عن وجود تسربات نفطية فيه. وقد عبروا منطقة البرقان في التاسع والعشرين من إبريل، ووصلوا إلى النقيرة في الخامس من مايو. وكانت أحد مواقع الاخوان من قبيلة العوازم. وبحلول اليوم العاشر من مايو كانوا قد وصلوا إلى المرير في قلب الأراضي السعودية.




كانت المسافة التي يخطونها يومياً تتراوح بين ٢٥ و٥٠ كيلومتراً، في جو وصلت حرارته إلى ٤٥ درجة مئوية. كما كانت الرياح تهب كثيراً وتملأ الكاميرا بالرمال، مما كان يثير حنق هايمز وغضبه ويقلل من جودة الصور الفوتوغرافية الرائعة التي التقطها. وكان هايمز يختبر الصخور عدة مرات في اليوم للحصول على معلومات عن الطبقات الجيولوجية للاراضي التي مر بها، ثم يدون كل ما يجمعه من معطيات بدقة متناهية في سلسلة من دفاتر السجلات الجيولوجية الميدانية. وبعد مرور ١٤ يوماً على التنقيب المتأني لم يتمكن من اكتشاف أي برهان على وجود الترسبات النفطية.










يسار: كان من ضمن رفقاء هايمز في السفر ٢٥ رجلاً من حراس الأمير بن سعود، ويظهر ثمانية منهم في هذه الصورة. وقد رافقوه عبر إقليم الأحساء (المنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية).
هايمز، سنة ١٩٢٤

أقصى اليسار، أعلى: قافلة هايمز الكبيرة وهي تشد الرحال وتغادر معسكرها بين البرقان وعين العبد في بداية شهر مايو.
هايمز، سنة ١٩٢٤

أقصى اليسار، وسط: أطفال من أهل البادية يقفون أمام الكاميرا قرب مدينة الكويت ٢٨ إبريل ١٩٢٨
هايمز، سنة ١٩٢٤

أقصى اليسار، أسفل: أهل البادية بالكويت يحملون حطب العرفج إلى السوق. وكان ستانلي ميلري، طبيب البعثة التبشيرية قد كتب عام ١٩١٨ في مجلة الجزيرة العربية المهملة "هذه الشجيرات الصحراوية من نعم الطبيعة العظيمة فهي تنمو في كل مكان تقريباً بالجزيرة العربية وتوفر أكلا للجمال والحطب للإنسان، وهو أكثر أنواع الحطب شعبية بالكويت"
هايمز، سنة ١٩٢٤









أقصى اليمين، أعلى: هاينز ورجاله في الخامس من مايو لدى وصولهم إلى النقيرة والتي كانت (مثل جارتها الصافرة) مستوطنة لجماعات الأخوان من قبيلة مطير. وقد كانت الصافرة حتى عام ١٩٢٢ داخل دائرة نفوذ الكويت المعترف بها
هاينز سنة ١٩٢٤

يمين: شيخ الصافرة وهو يرتدي رباط الرأس المميز لجماعات الأخوان، ومن الواضح أنه لم يمانع على الإطلاق في تصويره بالكاميرا على العكس من الأخوان الذين كان يرتابون فيها
هاينز سنة ١٩٢٤

أقصى اليمين: وسط نساء وأطفال الصافرة أثناء إعداد الطعام
هاينز سنة ١٩٢٤

أقصى اليمين، أسفل: مثال جيد للخيام البدوية، الصافرة.
هاينز سنة ١٩٢٤

أعلى: القصر الذي بناه الشيخ خزعل حاكم المحمرة والصديق الحميم للشيخ مبارك بغرض الاقامة فيه أثناء زياراته للكويت وقد كان من أبرز المباني المتميزة في مدينة الكويت وبعد وفاة الشيخ خزعل ظلت أرملته الشابة تعيش في القصر حيث زارتها فريا ستارك عام ١٩٣٧
هايمز سنة ١٩٢٤



وسط: قصر دسمان: مقر الشيخ أحمد الجابر في المنطقة الداخلية وهو منفصل عن المدينة ولكنه يقع داخل السور الرئيسي عند طرفه الشرقي
هايمز سنة ١٩٢٤



أسفل: تسربات نفطية في البحرة شمال الجهراء وقد تفقد هايمز هذا المكان في نهاية يونيو. ومع أنه يبدو واعدا في الصورة فإن هايمز اعتبر أنه لا يضم كميات كافية للإنتاج التجاري حيث لم يستطع تفسير التكوينات الجيولوجية بالموقع. وبالفعل احبطت البحرة الآمال في عام ١٩٣٦ حين تم التنقيب فيها أما اليوم فمكان الصورة يقع وسط حقل البحرة النفطي، وهو حقل منتج وغزير الإنتاج
هايمز سنة ١٩٢٤



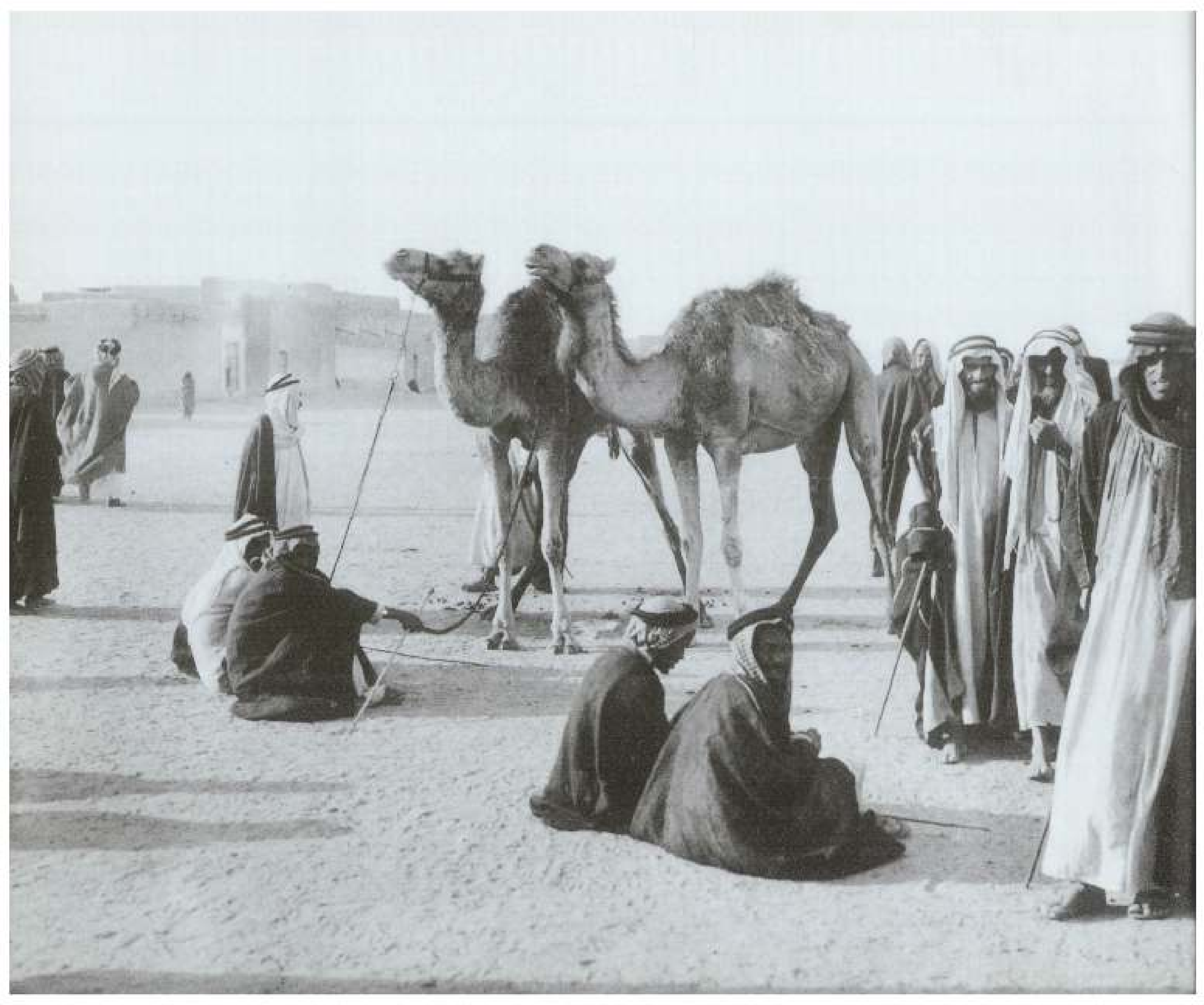
مقابل: عدد من أبناء البادية يسترخون بالصفاة المساحة المفتوحة الواسعة داخل سور الكويت حيث تجمع أهل البادية في سلام وأمان للتجارة وتبادل الأخبار وكانت الصفاة حلقة الوصل بين دور الكويت شرقا ودورها كمدينة صحراوية، وفيها كان يجري تبادل البضائع بين تجار البحر وتجار القوافل البرية.
هايمز سنة ١٩٢٤

وفي الحادي عشر من مايو رأى رجال البعثة في الأفق أول تجمع سكني هام منذ مغادرة الكويت، وهو واحة الجبيل التي كانت مستوطنة لصيادي الأسماك. وبعد الجبيل مر خط رحلتهم بالبحرين وتاروت والقطيف والدمام والعقير والهفوف في الأحساء، ولكن لم يتمكن هايمز في أي من هذه الأماكن من العثور على الترسبات النفطية، ووصل به اليأس الى استنتاج أنه لا طائل من مواصلة الرحلة إلى الجنوب من الهفوف، فعاد الى البحرين بمفرده للقيام بدراسة مسحية عن مصادر المياه، تاركا خلفه بويام والقافلة ليعودوا برا إلى الكويت من طريق مختلف مع اجراء أعمال التنقيب عن النفط أثناء رحلتهم. وانتهت إقامة هايمز في البحرين، وكذلك ختمت البعثة الاستكشافية بمجملها، عندما وصل بويام والقافلة بعد ذلك بيومين الى البحرين وقد غلبهم المرض.

عاد الجميع إلى الكويت على متن سفينة بخارية، وهناك قام هايمز بجولة حول المدينة التقط خلالها الصور الفوتوغرافية، وانتظر عودة الشيخ أحمد حيث أنه كان ينوي التنقيب عن النفط في شمال خليج الكويت. وبعد الحصول على موافقة الشيخ احمد، خرج في نهاية يونيو في بعثة استكشافية جديدة، وكان دليله ورفيق سفره الوحيد رجل كويتي كان قبل ذلك بفترة وجيزة قد اكتشف النفط يتسرب من الأرض في مكان اسمه البحرة، فأخذ يجمعه وينقله إلى مدينة الكويت لبيعه.

بعد رحلة شاقة وصل الرجلان الى الموقع حيث كان النفط يتسرب من الأرض في خيوط رفيعة بمعدل حوالي لتر واحد في اليوم. وقد اعترف هايمز انه لم يسعه تفسير هذه الظاهرة على أساس جيولوجي علمي، وبعد ان عرج الرجلان في طريقهما على الجهراء عادا الى مدينة الكويت لوداع الشيخ أحمد.

لقد أدى فشل هايمز في العثور على النفط إلى مبادرة نقابة الشرقية والعامة بمحاولة لبيع امتيازها في شرق الجزيرة العربية إلى احدى شركات النفط الأخرى بلا تأخير. واليوم نحكم على رحلة هايمز ليس من منطلق نتائج التنقيب عن النفط ولكن من واقع مساهمته في اكتشاف مصادر جديدة للمياه في البحرين، كما نحكم عليها من منظور ما تركه لنا من صور فوتوغرافية رائعة.





هذه الصفحة: سوق الكويت المشمس
وهو يعج بالباعة والمشترين
هايمز سنة ١٩٢٤

مقابل: سفينة شحن البضائع من نوع البغلة أو الغنجة تقف بين سفينتي شحن كبيرتين من نوع البوم، وقد سندت السفن في مكانها استعدادا لإصلاحها وتجديدها. التقطت هذه الصورة في شهر يونيو، وهو الموعد الذي عادة ما تكون السفن من هذا القبيل قد وصلت فيه لتوها من رحلتها التجارية الدورية مع الهند وشرق افريقيا. والمركب الصغير على اليسار من نوع الشوعي أو السمبوك. وربما كان يستعمل للرحلات التجارية القصيرة داخل الخليج.
هايمز سنة ١٩٢٤



البريطانيون يدافعون عن حليفهم، ١٩٢٠-١٩٢٩



يسار: مجموعة من الكويتيين في جلسة استراحة عند المرفأ في شهر فبراير ١٩٢٠، ويستدل من صاري العلم وقاعدته المستديرة أنهم أمام دار المعتمد السياسي البريطاني. وقد التقط هذه الصورة أحد رجال السفينة البحرية الملكية هايفلاير التي توقفت بالكويت في زيارة وجيزة، وكانت السفينة تتابع عن كثب الموقف المتوتر، حيث أنه خلال الفترة من مايو إلى أكتوبر من نفس العام تعرضت الكويت لخطر غزو الإخوان النجديين، مما أدى إلى إقامة أسوار الكويت وتم صدهم في المواجهة المشهورة بالجهراء، وانسحب الإخوان في النهاية في مواجهة استعراض للقوة الحربية البريطانية شاركت فيه السفن والطائرات والعربات المدرعة.
فيلوز سنة ١٩٢٠

مقابل: قوات بريطانية تشترك مع الكويتيين في الدفاع عن المدينة عام ١٩٢٨ وعنوان هذه الصورة هو ببساطة "حفظ".
السفينة إمرالد، سنة ١٩٢٨

شهدت الكويت أوضاع مضطربة خلال عشرينيات القرن الحالي يعود سببها الرئيسي إلى القلاقل التي نشبت في المناطق المتاخمة للأراضي الكويتية، والتي تواصلت تسميتها بنجد قبل أن تستتب الأوضاع فيها بعد عام ١٩٣٢ وتصبح في صلب المملكة العربية السعودية.

في عام ١٩٢٠ لم تكن الحدود بين الكويت ونجد قد رسمت بعد، ودب النزاع حول تحديد نطاق السيادة الجغرافية الكويتية. وكان الشيخ سالم (حكم ١٩١٧-١٩٢١) بطبيعة الحال يريد الاحتفاظ بالأراضي الواقعة داخل دائرة النفوذ الواسعة التي منحت الى أبيه الشيخ مبارك بموجب الاتفاقية الأنجلوعثمانية المبرمة عام ١٩١٣ والتي لم يتم التصديق عليها أبداً، ولكن من الطبيعي أيضاً أن القوة الاقليمية الصاعدة في تجد رأت الأمور على نحو مغاير.

وفي شهر فبراير عام ١٩٢٠ وصلت سفينة البحرية البريطانية هايفلاير في زيارتها الثانية للكويت، وكانت الزيارة الأولى في عام ١٩١٢ حين نقلت الأميرال بيتل (Bethell) إلى الكويت. كان أحد ضباط السفينة، ويدعى فيلوز (Fellowes)، قد حمل معه هذه المرة كاميرا والتقط بها عدة صور، إلا أنها ليست من نوعية جيدة ولم يبق منها سوى ١٢ صورة. الشيء الملفت هو أن الكويت تظهر في صور فيلوز وهي تنعم بالهدوء والسلام، فلا تبدو فيها أية بوادر للتهديد بل نرى في الصور الضباط وهم ينطلقون في رحلة بالجمال الى عمق الصحراء للاسترخاء وتناول الطعام والشراب. وما كادت الأشهر الثلاثة التالية أن تنقضي حتى انقلبت الأحوال على رأسها مع تأجج النزاع في شهر مايو ثم الخريف من نفس السنة عندما قامت قوات من الاخوان بغزو الأراضي الكويتية.



حادثة السفينة إمرالد، ١٩٢٨



رجال السفينة إمرالد ترحب بشيوخ الكويت على متن سفينته السفينة إمرالد، سنة ١٩٢٨

تم حل مسألة الأراضي رسمياً على يد السير بيرسي كوكس في مؤتمر العقير عام ١٩٢٢. ولكن الإخوان لم يقتنعوا كثيراً بالاتفاقيات الرسمية، وهددوا الكويت مرة أخرى خلال عقد العشرينيات. فبحلول عام ١٩٢٧ كان بعض من أكثر شيوخ قبائل الإخوان تعصباً قد خرجوا علانية على القيود التي فرضها الملك عبد العزيز بعد استعادة الحجاز والتوصل إلى اتفاقيات مع البريطانيين بشأن حدود أراضيه الجديدة، حيث بات يهتم بتعزيز وترسيخ وضع المملكة أكثر من اهتمامه بتوسيع رقعتها

وفي إطار تلك الأوضاع قامت مجموعات مسلحة من الإخوان تألفت في معظمها من رجال قبائل مطير والعجمان والعتوب بالهجوم على بعض التجمعات البدوية داخل أراضي الكويت وشنت غزوات في العراق والأردن. ومرة أخرى اضطرت بريطانيا إلى التدخل لمجابهة التهديد الذي تعرضت له الكويت والعراق، وقام غلوب باشا، الذي عمل منذ عام ١٩٢٤ في العراق على صد هجمات الإخوان عبر الحدود الجديدة، بحشد قوة مسلحة أخرى لحراسة حدود العراق والكويت مع المملكة العربية السعودية، وتكللت جهوده بالنجاح بفضل مساندة طائرات سلاح الجو الملكي واسطول من سيارات الفورد المسلحة. وفي شهر يناير ١٩٢٨ وقعت معركة رقي في الركن الجنوبي الغربي من الأراضي الكويتية. وفي السادس عشر من فبراير، ووسط المخاوف من قيام الإخوان بشن هجمات جديدة، وصلت السفينة الحربية البريطانية إمرالد إلى الكويت حيث أنزلت قوة من المارينز وقوات أخرى. ومكثت هذه القوات في الكويت حتى الرابع من ابريل، حين حلت السفينة إنتربرايز (Enterprise) محل السفينة إمرالد.

مع انتشار الشائعات في السوق عن آخر تحركات قائد الإخوان، فيصل بن دويش، انهمكت قوات السفينة امرالد في الاستعداد للدفاع عن المدينة، وانكب رجالها على التدريب بحماسة واضحة

تميزت الأجواء التي أجرينا فيها التدريبات بالرومانسية البالغة فقد قسم الرجال إلى مجموعات لحراسة الأبراج والبوابات، بينما تركت المواقع بين تلك النقاط ليملأها الرجال العرب في حالة وقوع الهجوم. وعندما وقفت فوق البوابة الرئيسية حاملاً سلاحي ومرتدياً الخوذة المعدنية، وحدقت عبر آفاق الصحراء، شعرت وكأنني أحد شخصيات مغامرات بوجيست (Beau Geste) العجيبة وكان قائد السفينة يترأس القوة، وعندما برز على ظهر جواده العربي المهتاج، ومعه اثنان من ضباط الصف البحريين على ظهور جيادهم، أضاف إلى جاذبية وسحر المنظر. لقد أرسلنا مئات الصور الفوتوغرافية إلى عائلاتنا، ولا شك أنهم فخروا بنا حين رأوها وقرؤوا رواياتنا عن ساعات المراقبة القلقة فوق الأسوار بانتظار انقضاض حشود لا تحصى من المهاجمين المتوحشين الآتين من أعماق الصحراء

سرتيز (V.N. Surtees)، السفينة إمرالد، الصفحتان ١٠٨ و١٠٩.

في التاسع والعشرين من فبراير وصل سرب من الطائرات وسرية من العربات المدرعة ونصبوا معسكراً خارج البوابة الشرقية، بينما أقام الجنود والبحارة معسكرهم داخل أسوار المدينة. كما وصلت سفينتان إضافيتان، هما كروكس (Crocus) و لوبين (Lupin)، وعلى متنهما تعزيزات زادت قوة الجنود إلى حوالي مائتي رجل. وفي البحر عملت السفن على ضمان أن مرمى مدافعها يطول جانبي المدينة بسهولة. أما القوات الكويتية فكان عددها في المدينة قد وصل إلى حوالي ألفي رجل، وقد أقامت استعراضات حربية وأجرت تدريبات مشتركة مع القوات البريطانية. ولكن وراء هذا العرض المؤثر للقوة العسكرية كان

البريطانيون يعانون من نقص في الذخيرة، وتفيد التقديرات أن ذخيرتهم كانت تكفي لإطلاق النار بصورة متواصلة لمدة خمس دقائق فقط. وقد حلوا المشكلة باستعارة ذخيرة إضافية وبعض المدافع الرشاشة من سلاح الجو الملكي.

ويذكر أن الشيخ أحمد كان سعيداً ومضيافاً، وكثيراً ما كان يرى وهو يفتش على الاستعدادات الدفاعية بصحبة المعتمد السياسي الميجور مور (J.C. More) وكبير ضباط البحرية. لقد كان مشهد البحارة وهم يقومون بالتدريبات الرياضية مصدر إلهام للشيخ أحمد، فكان يعمد في المساء إلى "العدو لمسافة حوالي مائتي ياردة بينما يلهث خلفه مرافقوه التعساء".

ومع كل هذا الاستنفار لم يقع الهجوم المرتقب ومر شهر مارس بسلام دون أي اضطرابات أو حوادث، إذا استثنينا من ذلك ما ألحقه المدافعون بأنفسهم من أضرار خلال المناسبات الترفيهية ومنها استعراض للموسيقى العسكرية أقامه رجال البحرية البريطانية وهم يرتدون الأزياء الهزلية وتفرج عليهم الكويتيون في ذهول صامت. أما أبناء الكويت فأقاموا استعراضات عسكرية رائعة حازت على إعجاب البريطانيين الشديد. ولكن وقع خلالها بعض الإصابات عندما أطلقوا النيران في الهواء إبان تأدية رقصات الحرب. وعندما استفسر بعض جنود القوة البريطانية عن حالة رجل كويتي ممن أصيبوا، سمعوا أنه في تحسن ملحوظ إلا أن الرجل الذي أصابه كان لا يزال في حالة حرجة. وفي ذلك دليل على مدى جودة الأسلحة النارية التي كانت بيد الكويتيين، حيث أفادت التقديرات أن أربعين في المائة منها تقريباً كان تالفاً ولا يصلح للاستعمال.





أعلى: الكويتيون يؤدون رقصة حرب صاخبة حازت على إعجاب شديد من طاقم السفينة إمرالد.
السفينة إمرالد، سنة ١٩٢٨

يمين: كويتيون يحرسون الأسوار أثناء التدريبات الدفاعية. وتشير وثائق الصورة إلى أن الرجل الذي ينظر إلى الكاميرا اسمه "عبد الله" قد يكون هو نفس الشخص الذي ذكره سرتيز حين قال أن الجهراء يدافع عنها "الشيخ عبد الله - وهو رجل شاب عمره ٢٩ سنة وحاد الذكاء لقد كان واسع الاطلاع وكان من الصعب علي في ضوء معرفته وأسلحته أن أصدق أنه لم يزر إنجلترا أبداً"
السفينة إمرالد، سنة ١٩٢٨





يسار: الشيخ عبد الله الشاب ورفاقه
وهم ينطلقون على جيادهم العربية
النجيبة في جولة تفقدية
السفينة إمرالد سنة ١٩٢٨

أسفل يمين: حصن القصر الأحمر في
عام ١٩٢٨ حين كان تحت إمرة الشيخ
عبد الله، وقد شهد الحصن قتالاً
ضارياً عام ١٩٢٠
السفينة إمرالد سنة ١٩٢٨

أسفل يسار: رجال كويتيون يسارعون
إلى مواقعهم القتالية
السفينة إمرالد سنة ١٩٢٨

مقاتلو الصبية الصغار وقد خرجوا
لشد أزر آبائهم الذين يحرسون السور
وكان سور الكويت الذي أقيم في عجلة
عام ١٩٢٠ يضم ٣٠ برجاً وأربع
بوابات، وأقيمت منصة لانطلاق النار
على كامل محيطه البالغ طوله حوالي
ثلاثة أميال ونصف الميل
السفينة إمرالد سنة ١٩٢٨







أعلى: فرسان الكويت في استعراض عسكري
السفينة إمرالد سنة ١٩٢٨

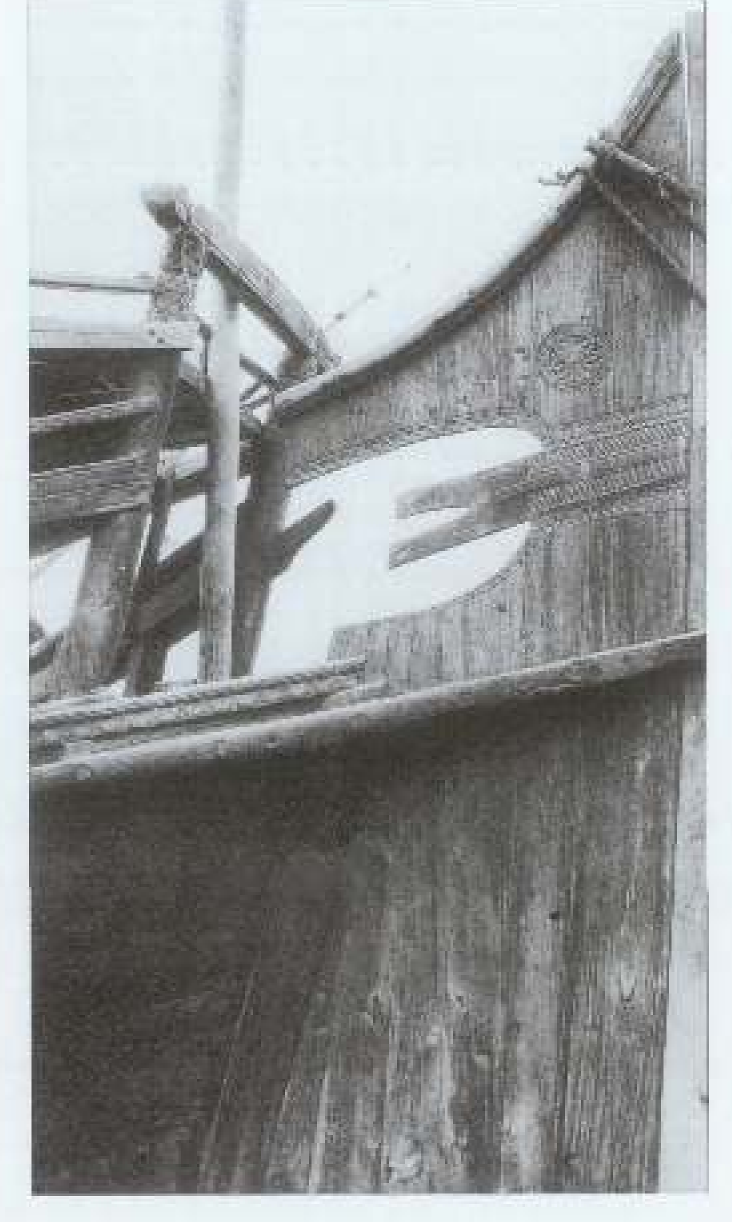
أسفل: مقهى مسقوف وبناء في زقاق بالقرب من السوق
السفينة إمرالد سنة ١٩٢٨

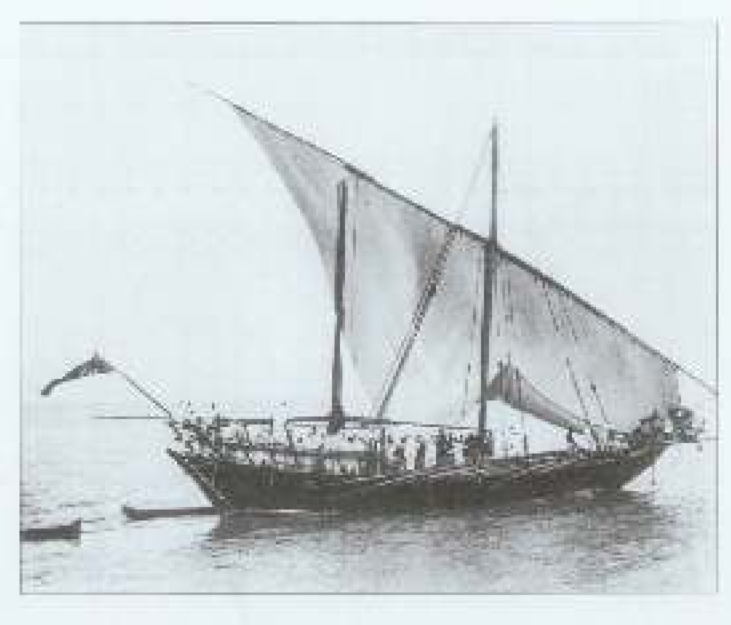
أسفل يسار: نساء وأطفال مدينة الكويت
السفينة إمرالد سنة ١٩٢٨

مقاعد البدو في الصفاة حيث يبيعون العلف والحطب
السفينة إمرالد سنة ١٩٢٨



جيرالد سيلوز (١٩٣٠) والكابتن وارد-سميث (١٩٣٣)







يسار: أحد مراكب اللؤلؤ الكويتية في أواخر شهر سبتمبر ١٩٣٣ عند انتهاء موسم الغوص على اللؤلؤ كانت المحاسيف جزءاً هاماً من مراكب اللؤلؤ حيث كانت تستخدم في التنقل بالمركب بين المغاصات وتستعمل كروابط للغواصين تحت الماء وقد استمر موسم الغوص الرسمي من وسط مايو إلى وسط سبتمبر وكانت الكويت قبل الحرب العالمية الأولى تملك ٧٠٠ مركب غوص يعمل فيها من ١٠ إلى ١٥ ألف رجل لكن عند التقاط هذه الصورة كانت تجارة اللؤلؤ حول العالم قد تدهورت بشدة بسبب الكساد الاقتصادي العالمي وإنتاج اللآلئ الصناعية في اليابان ولم تخرج تجارة اللؤلؤ من أزمتها قط ولحسن حظ مستوطنات الخليج تم التعويض عن نقص الدخل حين اكتشف النفط في المنطقة.

وارد-سميث، سنة ١٩٣٣

أقصى اليسار: المؤخر المزخرف لمركب البتيل المبين في الصورة السابقة، ويظهر هنا كرسي التوحدة (القطان). سيلوز، سنة ١٩٣٠

يمكن تمثيل المسؤولين وضباط البحرية البريطانيين الذين التقطوا الصور في الكويت خلال مطلع الثلاثينيات بثلاثة أفراد، جيرالد سيلوز (Gerald Selous)، واللفتاننت كوماندر هيربرت فون (H.R. Vaughan)، والكابتن وارد-سميث (G. Ward-Smith). كان سيلوز سياسياً ومستعرباً شغل منصب القنصل البريطاني في البصرة خلال الفترة ١٩٢٩-١٩٣٢، وتردد كثيراً على الكويت حيث التقط بعضاً من أفضل صور الميناء على الإطلاق. أما هيربرت فون فكان نموذجاً نمطياً لرجال البحرية البريطانيين الذين اهتموا بالمراكب المحلية. وقد خدم في الخليج بين عامي ١٩٢٨ و١٩٣٠ واستطاع تصوير ما يناهز جل أنواع المراكب المحلية المستخدمة من شط العرب إلى عمان، ولكن الصور التي التقطها للكويت قليلة العدد وضعيفة الجودة، ولذلك فإننا لم نعرضها في هذا الكتاب. وبالنسبة للكابتن وارد-سميث فإننا لا نعرف عنه الكثير بخلاف أنه كان من ضباط البحرية البريطانية الذين عملوا في منطقة الخليج في أوائل الثلاثينيات وكانت له بعض المعاملات مع هارولد ديكسون (Harold Dickson).



جزء من عرفا الكويت سنة ١٩٣٠،
وتظهر سفن البوم المخصصة لنقل
البضائع في خلفية الصورة وفي
المقدمة تظهر مراكب الشعي والسمبوك
الأصغر حجماً ووسطهم نرى أحد
مراكب البغيل الشهيرة التي كانت تقود
أسطول اللؤلؤ الكويتي إلى المغاصات
كل صيف. وتظهر في الصورة أيضاً
الحاويات الخشبية المربعة والمستديرة
لحمل الماء على المراكب للتجارة، كما
كانت الحاويات من هذا النوع تستخدم
لجلب المياه من شط العرب.
ميلوز سنة ١٩٣١

هارولد وفيوليت ديكسون، ١٩٢٩-١٩٣٦



أعلى: صورة لهارولد ديكسون التقطت له بالأستوديو عام ١٩٣٦ إبان شغله منصب المعتمد السياسي البريطاني في الكويت



أعلى يسار: هارولد ديكسون مع بعض البدو. كانت أسرة ديكسون تفضل تمضية الوقت مع الأصدقاء البدو على أي نشاط ترفيهي آخر
ديكسون، عقد الثلاثينيات



وسط يسار: سوق الكويت حوالي سنة ١٩٣٥
ديكسون حوالي عام ١٩٣٥



أسفل يسار: خيام وأسرة بدوية في الأراضي الكويتية الداخلية. كانت الخيمة التقليدية تقسم إلى قسمين يفصل بينهما ستار منسوج بإتقان وتعقيد حيث كان القسم الأيمن للرجال وضيوفهم، والقسم الأيسر للنساء والحياة الأسرية
ديكسون، عقد الثلاثينيات

ولد هارولد ديكسون في بيروت عام ١٨٨١ وأمضى معظم سنوات طفولته في القدس. ويرجع تعاطفه مع عرب الصحراء وشعوره بالقرب منهم إلى أعوام طفولته الأولى التي قضاها في دمشق، حيث كانت مرضعته امرأة بدوية جاء بها الشيخ مجول المزراب شيخ قبيلة عنزة الذي تزوج الليدي ديغبي (Lady Digby) في ستينيات القرن الماضي ولهذا السبب اعتبره رجال القبائل وكأنه أخ لهم، وهي ميزة ساعدته كثيراً في تعاملاته معهم في السنوات التالية من عمره.

بعد انضمام هارولد ديكسون إلى الجيش الهندي عام ١٩٠٨، كان لمعرفته باللغة العربية الفضل في تعيينه في العراق عام ١٩١٤، وهناك خدم تحت إمرة السير بيرسي كوكس وكان شديد الإعجاب به، وساعده على تنظيم الإدارة المدنية في جنوب العراق. وعندما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها تم تعيينه معتمداً سياسياً في البحرين، ثم عاد إلى العراق عام ١٩٢٠ ليشغل منصب الضابط السياسي هناك، وخدم في هذا المنصب أثناء اندلاع الاضطرابات في ذلك العام. وقد حضر ديكسون مؤتمر العقير عام ١٩٢٢ حيث التقى بالأمير عبد العزيز بن سعود للمرة الثانية. ثم أمضى فترة في الهند عاد بعدها إلى الخليج ليشغل منصب المعتمد السياسي في الكويت في محل الميجور مور.

كرس ديكسون وزوجته فيوليت (Violet Dickson) بقية حياتهما للكويت، وحظيا بحب واحترام حكامها وشعبها على حد سواء. وكان ديكسون يتحدث العربية بطلاقة، ويتعاطف بعمق مع أهل الكويت ومع القبائل التي تقطن على الجانب الآخر من الحدود في المملكة العربية السعودية. وتمكن بفضل ما تمتع به من ثقة واحترام سائر الأطراف في تلك المنطقة أن يستعمل مهاراته الدبلوماسية الفائقة في تعاملاته، وأفضل مثال على ذلك حدث خلال اضطرابات الاخوان في الفترة ١٩٢٧-١٩٣٠، حيث أجرى ديكسون المفاوضات بنفسه مع زعيم الاخوان فيصل بن دويش، شيخ قبيلة مطير، خلال عامي ١٩٢٩ و١٩٣٠ ونجح في إنهاء غزوهم للأراضي الكويتية. وفيما بعد، حين وجد الشيخ فيصل بن دويش نفسه بين مطرقة قوات بريطانيا البرية والجوية وسندان قوات الأمير ابن سعود، وضع نساءه وأطفاله في رعاية ديكسون وسلم نفسه



إلى البريطانيين قبل أن يُسلم إلى الأمير ابن سعود.

تقاعد ديكسون من منصب المعتمد السياسي في عام ١٩٣٦، ثم عين بناء على طلب الشيخ أحمد الجابر في منصب الممثل المحلي الرئيسي لشركة نفط الكويت الحديثة النشأة، وظل يعمل مع الشركة بقية عمره، كما استمر هو وزوجته يعيشان في دار المعتمد السياسي القديمة. وكانا يعتبران مراقبين ماهرين قاما بتسجيل انطباعاتهما في يوميات وصور فوتوغرافية ورسومات، وكذلك سجلاها في لوحات بالألوان المائية. ورغم أن غالبية صورهما كانت من نوع الصور العفوية السريعة، فإنهما مع ذلك تركا لنا لقطات قيمة عن أسفارهما وعن الحياة في الصحراء حيث كان يتمتعان بقضاء الوقت مع أصدقائهم من أهل البادية.

توفي هارولد ديكسون عام ١٩٥٩، وقد ألف ونشر كتابين هامين للغاية، وهما "عرب الصحراء" و"الكويت وجيرانها". أما زوجته فيوليت ديكسون فعاشت في الكويت بعد رحيله لمدة ثلاثين سنة أخرى ونشرت مذكراتها الثمينة بعنوان "أربعون سنة في الكويت". وقد عايشت مأساة الغزو العراقي للكويت عام ١٩٩٠ وتم ترحيلها أثناء الاحتلال إلى إنجلترا حيث توفيت عام ١٩٩١.

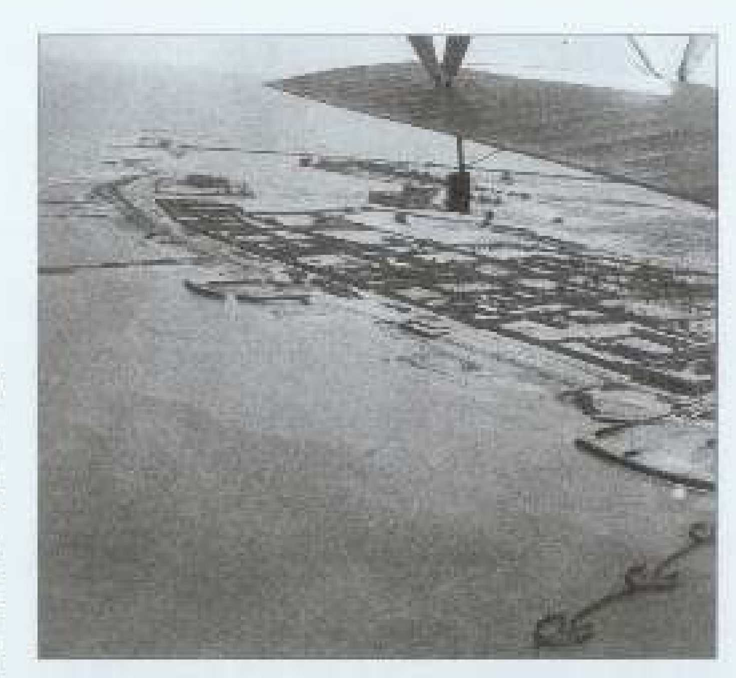
يسار: عمشة وحصة، سيدتان بدويتان من قبيلة المزين، وكانتا من أصدقاء أسرة ديكسون التي اعتادت قضاء بعض من فصل الربيع في مضارب المزين. وقد قامت عمشة بنقل معرفتها الواسعة عن النباتات الصحراوية واستخداماتها إلى فيوليت ديكسون. ديكسون، عقد الثلاثينيات

الصفحة السابقة: كانت منطقة الجهراء التي تقع في الركن الغربي من خليج الكويت هي المكان الوحيد الذي قامت فيه الزراعة على نطاق هام، وكان الماء يسحب في دلاء جلدية (الغرب) باستخدام الحمير التي تسير نازلة على منحدر وهي مستترة على يمين الصورة، وكان حبل سحري يقلب الماء آلياً في البركة التي تظهر في مقدمة الصورة ومنها ينتقل الماء عبر قنوات الري إلى أراضي البساتين. وكان نفس هذا الأسلوب يستخدم في كافة أرجاء نجد وشرق الجزيرة العربية، والفرق الوحيد هو أنه في الكويت كانت البكرة العليا تعلق على هيكل خشبي بينما استخدمت الهياكل المبنية بالحجر أو الطوب اللبن في المناطق الأخرى. ديكسون، سنة ١٩٣٥

أدموندز، ١٩٣٤ و١٩٣٧

كان أدموندز [C.J. Edmonds] مسؤولا بريطانيا أمضى معظم سنوات عمله في العراق إثر تعيينه مساعدا للمسؤول السياسي ببلاد الرافدين عام ١٩١٥، وفي عام ١٩٢٢ انتقل إلى كركوك والسليمانية حيث مكث سنوات عديدة. وفي الثلاثينيات شارك ادموندز في عدد من لجان ترسيم الحدود بالشرق الأوسط، وهي أعمال مكنته من السفر بشكل مكثف في أرجاء المنطقة. وقد ظل أدموندز في الشرق الأوسط حتى عام ١٩٥٠ ثم عاد إلى إنجلترا ليعمل محاضرا في الدراسات الكردية بجامعة لندن

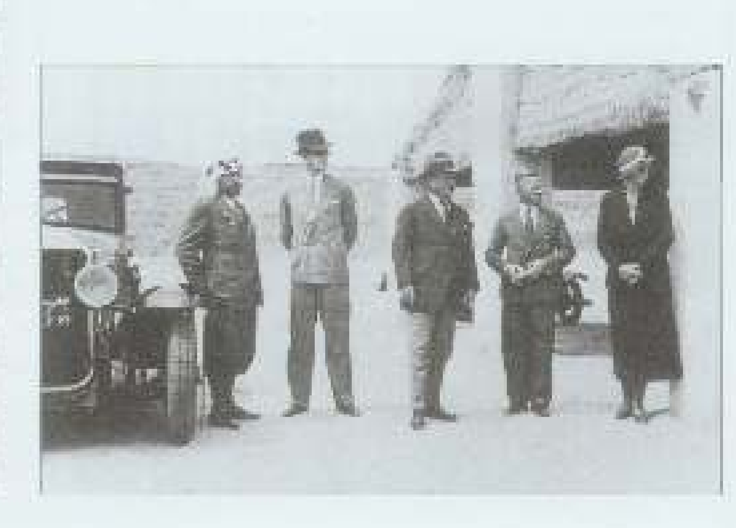
التقط أدموندز خلال سنوات عمله عددا هائلا من الصور، وترك لنا ألواح نيجاتيف من الحجم الصغير يربو عددها على أربعة آلاف، وقد نظمها بعناية فائقة، وطبع بعضها على أوراق فوتوغرافية بكل منها عدة صور وجمعها في أربعة وعشرين ألبوما جيد التوثيق. وبعض صوره فائقة الجودة، وتغطي المجموعة منطقة واسعة تشمل فلسطين والعراق وسوريا ولبنان وإيران، ولهذا تعتبر سجلا معاصرا عظيم الأهمية. كما تشتمل مجموعة ادموندز على خمسين صورة لمباني الكويت ومينائها وأسواقها التقطها خلال زيارتيه للكويت في عامي ١٩٣٤ و١٩٣٧، حيث أقام أولا مع عائلة ديكسون ثم مع جيرالد دي غوري



يمين: تبين هذه الصورة الجوية الطرف الشرقي لمدينة الكويت ويمكن رؤية نهاية سور الكويت وقصر دسمان الواقع داخل السور مباشرة، ويليه على الشاطئ مبنى دار المعتمد البريطاني الجديدة والذي انجز بناؤه عام ١٩٣٥ كما يظهر بوضوح في مقدمة الصورة مصيدة أسماك تقليدية تعتمد على حركة المد والجزر، وكانت تصنع من سعف النخيل
ادموندز سنة ١٩٣٧



أسفل يمين: تجمع مياه الأمطار خارج سور الكويت في شهر فبراير ١٩٣٧
ادموندز سنة ١٩٣٧



أقصى اليمين: الحاج وليامسون (يسار) مع هارولد ديكسون (وسط) وفيوليت ديكسون (يمين) في شهر مارس ١٩٣٤،
ادموندز سنة ١٩٣٤

مقابل: بعض الصبية الكويتيين يقفون أمام عدسة الكاميرا ويرى وراءهم سفينتين من نوع البوم وقد رفعتا استعدادا لبدء الاصلاحات
أدموندز سنة ١٩٣٧



جورج رندل، ١٩٣٧

قام الدبلوماسي البريطاني المرموق جورج رندل (George Rendel) بزيارة الكويت في شهر فبراير عام ١٩٣٧ وكان الملك عبد العزيز بن سعود قد دعاه لزيارة المملكة العربية السعودية مع زوجته بوصفه رئيس الدائرة الشرقية بوزارة الخارجية البريطانية، فانتهز رندل هذه الفرصة لزيارة العراق والكويت وبوشهر والبحرين لأداء بعض المهام الرسمية، وذلك قبل عبوره المملكة العربية السعودية من العقير إلى جدة عن طريق الرياض خلال موسم الربيع.

عندما وصل رندل مع زوجته إلى الزبير من البصرة، استقبلهما المعتمد السياسي، جيرالد دي غوري، وصحبهما إلى الكويت عن طريق الجهراء، ومع أن رندل لم يلتقط سوى عدد قليل من الصور بالكويت إلا أن لها أهميتها حيث تبين لنا المدينة عشية اكتشاف النفط بكميات تجارية في عام ١٩٣٨. وتقدم لنا مذكرات رندل المسلية خلفية جيدة لهذه الصور.

.. في وقت زيارتي لم يكن العمل قد بدأ بعد في حقول النفط، وكانت الكويت لا تزال مدينة عربية تقليدية لم تمسها يد التغيير منذ القرون الوسطى. ومع اقترابنا من مشارفها تجلت لنا أسوارها الدائرية المتكاملة بلونها المائل إلى الحمرة، مع بواباتها الجيدة الحماية، ويحد المدينة من الشمال البحر ذو الزرقة الباهتة، ومن الجنوب الصحراء المنبسطة الكستنائية اللون، مما جعل المدينة تبدو بمظهر عجيب كالحلم. وقد وجدنا المدينة تعيش ذروة الاحتفال بعيد الأضحى واختتام موسم الحج، حيث رفرفت الرايات على سائر المراكب الراسية في المرفأ وعج السوق الواسع بالحركة الكثيفة. وقد حضر شيخ المدينة لمشاهدة رقصة سيوف تقليدية يؤديها حراسه ودعانا لمتابعتها في صحبته، فجلست زوجتي إلى جواره على أريكة مرتفعة وهي سافرة بلا حجاب وظلت تحاول بأدب وبلا جدوى أن تغطي ساقيها حيث كنا لا نزال نرتدي ملابسنا الأوروبية.



صورة التقطت في فبراير ١٩٣٧ لباب من الأبواب الرئيسية الأربعة بسور الكويت، وكانت تعرف باسم بوابة الجهراء وباب نايف وباب البريسي أو باب الشعب، وباب بسمان أو باب الصباح، وإضافة إلى عدد الأربعة كان يوجد أيضاً باب أصغر في الشمال. رندل، سنة ١٩٣٧



مشهد في السوق، زيلدر، سنة ١٩٣٧

كانت الكويت إبان زيارتنا لا تزال تعتمد على نشاطيها الرئيسيين التقليديين، وهما التهريب وتجارة اللؤلؤ. كان التهريب يسبب لنا مشاكل لا نهاية لها ولكنه كان يدر على الكويت أرباحاً عظيمة. أما تجارة اللؤلؤ فكانت حالتها تتدهور الى كساد عميق، ومع ذلك واصل العاملون فيها إقامة عدد من المراسم الاحتفالية الجميلة والمرتبطة بالافتتاح والاختتام الرسميين لموسم اللؤلؤ. وقد التقينا بالشيخ في مناسبات عديدة ... [حيث كان] ... شخصاً بالغ الود ودعانا الى تناول وجبة عشاء ممتعة للغاية على النمط الأوروبي في قاعة بقصره كادت تمتلئ تماماً بساعات الحائط السويسرية. وكانت الاستعدادات المعقدة قد أجريت للترفيه عنا حيث تقرر أن نحضر خلال يومنا الثاني وليمة عربية تقليدية في وسط الصحراء، الا أن ذلك اليوم كان أحد الأيام القليلة الممطرة ذلك العام، ومع ذلك كان الشيخ مشرقاً بالسعادة بفضل ما سماه "مجيئنا الأخضر". أما أنا فكنت أقل غبطة حيث تذكرت صديقي هيو ناتشبول-هيوغسن (Hughe Knatchbull-Hugessen) حين جاء في زيارة من إيران قبل ذلك بعام أو عامين. فقد كان هو أيضاً قد جلب معه الغيث وتلقى التهنئة على ذلك ولكن المطر لم يتوقف وبدأت المدينة التي كانت معظم مبانيها مشيدة من الطين تذوب وتتهدم، ولم يجد مناصاً في نهاية الأمر من تقديم مساهمة كبيرة الى صندوق لإعادة الاعمار. ولذلك لم أكن أسفاً على مغادرة الكويت قبل أن تسنح الفرصة للأمطار التي صاحبتنا على احداث خسائر هامة بالمدينة.

(جورج رندل، السيف والزيتونة، الصفحات ١٠١-١٠٢)

سعى رندل في الكويت إلى تحديد العلاقات بين الكويت وبريطانيا وتحديثها، حيث كانت هذه العلاقات تدار منذ زمن بعيد عن طريق المقيم البريطاني في بوشهر الذي كان المعتمد السياسي في الكويت يرفع تقاريره إليه. وكذلك عن طريق الدائرة السياسية لحكومة الهند. كتب رندل في مذكراته يقول: "إن وضعنا، على ما يبدو لي، ينطوي على التناقض ويشوبه الإبهام. فالشيخ يعتبر حاكماً ذا سيادة، مع التزامه بموجب معاهدة أبرمها معنا أن يمتنع عن القرصنة وتهريب الأسلحة وتجارة الرقيق وأن يسلمنا زمام علاقاته الخارجية" وقد اقترح رندل عام ١٩٣٣ أن تصبح الكويت محمية بصفة رسمية. إلا أن هذه الخطة لم تأت بثمر، ولم ينتج عن زيارته الحالية شيء يذكر باستثناء أنه بعد ختامها مباشرة قامت بريطانيا بترقية لقب الشيخ أحمد من "سعادة الشيخ" إلى "سمو الشيخ". وقد تواصل اختيار المندوبين السياسيين البريطانيين في الخليج من ضمن صفوف موظفي الإدارة الهندية أو الجيش، وذلك إلى أن نالت الهند الاستقلال عام ١٩٤٧.

كان رندل مصوراً فوتوغرافياً غزير الإنتاج، ويدين له دارسو ومؤرخو المملكة العربية السعودية بالذات بفضل كبير. وفي الثلاثينيات استخدم إحدى كاميرات زايس إيكون المنتشرة في تلك الفترة بأنواعها العديدة، وكانت تحظى بإقبال الرحالة والمسافرين بفضل صغر حجمها وعدساتها الممتازة ومرونتها. وقد التقط رندل ثماني وعشرين صورة فقط في الكويت، وتظهر فيها مشاهد للحياة اليومية النشطة بالميناء والسوق ولقطات لسور المدينة وللبدو مع جمالهم وأغنامهم





مشاهد في السوق. رندل سنة ١٩٣٧

فريا ستارك، ١٩٣٢ و١٩٣٧

تعتبر الكاتبة والرحالة الشهيرة فريا ستارك غنية عن التعريف في هذا الكتاب. لقد كانت مصورة فوتوغرافية غزيرة الإنتاج منذ شبابها، وصل تعداد ما جمعته من صور الى عدة الاف صورة التقطت معظمها باستعمال كاميرتها الأمينة طراز لايكا وتعكس صورها أن اهتمامها الرئيسي كان ينصب على الناس الذين التقت بهم خلال أسفارها. حيث نرى البشر دائما في صورها، حتى في المشاهد التي سجلتها لنائي الأصقاع.

قامت فريا ستارك بزيارتين وجيزتين للكويت خلال عقد الثلاثينيات. كانت الأولى في ربيع عام ١٩٣٢ عندما سافرت برفقة السير هيوبرت يونغ (Sir Hubert Young) وزوجته، وسجلت انطباعاتها عن الكويت في كتابها الأول الذي صدر بعنوان "صور وصفية لبغداد":

> تحيط بمدينة الكويت أسوار وابراج على ثلاث جهات .. وفي الظلمة التي يحس فيه المرء رغم السواد ببياض الرمال الشفاف، ينتظرنا العرب الساهرون على حراستها ..
>
> أما الشوارع فمنعزلة ولا نوافذ تطل عليها .. والمزاريب الخشبية تبرز فوق الشارع من حوائط المنازل الطينية. ويوجد في وسط الأبواب الخشبية اعمدة نحتت عليها النقوش. وفي الواح الأبواب صنعت أبواب جانبية توصد بالأقفال والمزاليج. والبشر السائرون هنا وهناك يغلب على أرديتهم السواد والبياض. مع مسحات من اللون الأحمر على الرؤوس أو الأكمام ..

خلال تجوالها الاستكشافي في أنحاء المدينة، فتنت فريا ستارك بجمال وتنوع المراكب المحلية الراسية في الميناء، كما اجتذبها أيضاً النشاط الصاخب في الأسواق. حيث اعترفت بأنها والنساء الأخريات في مجموعتها قد "ذهبت عقولنا تماماً من كثرة ما رأيناه من مفاتن"



ضريح مار اليامر في جزيرة فيلكا ويعرف أيضا باسم ضريح الخضر بعد زيارة فريا ستارك للجزيرة تم اكتشاف أن الجزيرة منطقة أثرية حافلة بها مواقع ترجع الى الألف الثالثة وبدايات الألف الثانية قبل الميلاد ويتضح منها وجود اتصالات كثيرة بين الجزيرة والحضارتين السومرية والأكادية ولا يعرف الشيء الكثير عن الشيخ الخضر غير أن اسمه كناية عن اللون الأخضر ويرد ذكره في قصص ألف ليلة العربية كحارس نبع الحياة وماء الخلود. ويقول البعض أن أصله يرجع الى الشخصية الأسطورية السومرية أترخاسيس (زيوسدرا) أو شخصية أتنابشتم (الأكادية) والذي نجى من الطوفان وكان يسكن في دلمون. ستارك، سنة ١٩٣٧

عندما عادت فريا ستارك إلى الكويت ضيفة على جيرالد دي غوري في عام ١٩٣٧، كانت الكويت قد شهدت تطورات كبيرة. حيث بدأت الطائرات

تهبط بمحاذاة سور الكويت. وظهرت "لوحة نحاسية متواضعة على منزل بطل على المرفأ" تعلن وصول شركة نفط الكويت الأنجلو أمريكية، وكان ذلك بشيراً على ما ستأتي به الأيام. وقد أثارت هذه التطورات الحزن في قلب فريا ستارك، كما حزنت لاستمرار معاناة الاقتصاد الكويتي من جراء انهيار تجارة اللؤلؤ التي كانت مصدر الدخل الرئيسي للبلاد، وكذلك بسبب الحصار الأرضي الذي فرضته المملكة العربية السعودية. إلا أن غيوم الحزن انقشعت فور قيامها بزيارة جزيرة فيلكا والتي كتبت عنها في كتابها "ساحل البخور" تقول "لا توجد على الجزيرة سيارة واحدة، ولا جرائد ولا بريد ولا جهاز الحاكي (الغراموفون). إنها مكان مبارك، لكم أتمنى أن أشتريها لأبقيها على حالها". لقد كان هذا الحنين الشاعري من السمات المميزة لكتاباتها.

لا بد أن نعترف أن الصور التي التقطتها فريا ستارك في الكويت لم تكن من أفضل صورها وأهمها. وفي حين أن مقالتها الممتازة بعنوان "الكويت" التي ظهرت في عدد المجلة الجغرافية الصادر في شهر أكتوبر ١٩٣٧ قد نشرت معها عدة صور فوتوغرافية ممتازة. كانت معظم هذه الصور تنسب الى المصور كوزنس (H.L Cozens)، الذي لم يتم بعد العثور على مجموعة أعماله الفوتوغرافية الأصلية.



يمين: جامعو الحطب من قبيلة مطير،
ستارك سنة ١٩٣٦



أسفل يمين: إصلاح شباك الصيد
جزيرة فيلكا
ستارك سنة ١٩٣٦



أسفل: كانت زوارق الصيد من نوع الوحية العتيقة منتشرة على الساحل العربي بالخليج، وكانت تصنع من سعف النخيل المربوطة بالحبال. ويظهر في الصورة زورق من هذا النوع يملكه بدوي عجوز من نجد كان يعمل حارساً للمنارة التي أقامها البريطانيون في رأس الأرض.
ستارك سنة ١٩٣٧

جيرالد دي غوري والزوجان ليندت، ١٩٣٦-١٩٣٩



يسار: الشيخ أحمد الجابر الصباح والجنرال دي غوري في لحظة استجمام على متن القارب البخاري الذي يمتلكه الشيخ
فبراير، سنة ١٩٣٩



أسفل يسار: صورة التقطت لمنطقة الصفاة من سور المدينة وهي الساحة المفتوحة المتاخمة للسوق وكان أهل البادية يأتون إلى الصفاة لبيع الحيوانات والمنتجات الحيوانية ولشراء ما يحتاجونه من لوازم ولتصفية ديونهم والمستحقات الجمركية للأعوام السابقة وكانت الصفاة تتسع بسهولة للقوافل الكبيرة. وكانت الأخبار من أهم ما يتبادله الناس فيها فكانوا يتناقلون الشائعات والأخبار من شمال الجزيرة العربية ووسطها وشرقها لتختلط بأخبار سكان الكويت وتجار البحر
دي غوري، أواخر عقد الثلاثينيات من القرن العشرين

بدأت علاقة جيرالد دي غوري بالعالم العربي بالصدفة. فبعد إصابته في كل من غاليبولي وفرنسا أثناء الحرب العالمية الأولى، بدأ يتعلم العربية خلال نقاهته حين عثر على كتاب لتعليم اللغة العربية على المنضدة المجاورة لفراشه.

وفي عام ١٩٢٤ سافر جيرالد دي غوري إلى العراق، حيث عمل لدى الجيش والقوات الجوية البريطانية في مجال المخابرات. وقد زار الكويت خلال عامي ١٩٢٧ و١٩٢٨ في إطار مهام تتعلق بالاستخبارات والاتصالات إبان أزمة جماعات الإخوان. واحتفظ ببعض الصور التي التقطت خلال حادثة السفينة امرالد، ومن المحتمل أن يكون قد التقطها بنفسه، إلا أن الأرجح هو أنها التقطت على يد ضابط من ضباط البحرية

البريطانية. وفي أوائل الثلاثينيات عمل جيرالد دي غوري في هيئة موظفي الوزير البريطاني السير أندرو ريان (Sir Andrew Ryan) بمدينة جدة، ومنها سافر عبر الجزيرة العربية إلى الكويت وفي عام ١٩٣٥ رافق بعثة الوزير ريان إلى الرياض. ثم تم تعيينه عام ١٩٣٦ في منصب المعتمد السياسي بالكويت، خليفة لهارولد ديكسون، ومكث في الكويت حتى عام ١٩٣٩.

لقد كانت هذه الفترة صعبة على جيرالد دي غوري. ففي محاولته لتجنب التورط في الجدل السياسي الذي تمخضت عنه الاضطرابات الداخلية بالبلاد عام ١٩٣٩، اضطر الى دفع ثمن حياده عندما اتهمه الشيخ أحمد بالامتناع عن تأييده. وكذلك وجه اليه المعسكر المعارض نفس التهمة. وخلال الحرب العالمية الثانية، عمل جيرالد دي غوري مبعوثاً خاصاً للحكومة البريطانية في الرياض.

وفي حين لم يكتب دي غوري الكثير عن الكويت، فإنه كان يشعر بتعاطف خاص تجاه المملكة العربية السعودية، وبصفة خاصة تجاه تقاليدها النجدية والتي تنبأ متحسراً بأنها ستندثر وشيكاً تحت زحف الحداثة الجارف. وكتبه تعتبر تشخيصاً لنظرته الرومانسية عن قبائل شبه الجزيرة العربية وأنماط الحياة الضاربة في القدم، ومنظوره لا يرى في حياة العرب الا سحر العصور الوسطى وجمالها الطبيعي الخلاب. وهو منظور تشاطره فيه صديقته فريا ستارك التي استضافها في الكويت عام ١٩٣٧. والتنويه بذلك لا يرمي الى التقليل من شأن كتاباته، فلا شك انه استطاع أن ينفخ الروح في مشاهد الحياة اليومية في الرياض والجزيرة العربية القديمة بأسلوبه الأدبي القوي المثير للخيال.

ترك دي غوري مجموعة فوتوغرافية ضخمة، ولكن يصعب التأكد مما إذا كان هو التقط هذه الصور بنفسه أم التقطت على يد غيره، شأنها في ذلك شأن مجموعة ديكسون الفوتوغرافية تماما. وقد الهمت المملكة العربية السعودية حس دي غوري الفني الرفيع، وجعلته يخرج بأفضل إنتاجه الفني كمصور، الا أن صوره الخاصة بالكويت كانت قليلة العدد، والصور المطبوعة على صفحات هذا الكتاب تأتي من مجموعة التقطها أثناء عمله كمعتمد سياسي، حين استضاف السيد ليندت [A.R. Lindt] وحرمه، وهما ضيفان لا تتوفر عنهما معلومات شافية، إلا اننا نعرف أنهما قدما له ألبوماً ضم أهم الصور التي التقطوها سوياً في الكويت.







يمين: دار المعتمد السياسي الجديدة. ويعتقد أنها من تصميم مكتب لتيتز بمدينة دلهي. وقد انجز بناء الدار عام ١٩٣٥ وهي اليوم مقر السفارة البريطانية بالكويت. وقد أصرت أسرة ديكسون على توسيع الشرفة من ٨ اقدام الى ١٠ اقدام، وهناك سكنت الأسرة لمدة سنة واحدة (١٩٣٥-١٩٣٦) ثم انتقلت الى دار المعتمد القديمة إثر تقاعد هارولد ديكسون، فحل جيرالد دي غوري محلهم في الدار الجديدة.
دي غوري، سنة ١٩٣٧

وسط يمين: كانت الأعمدة الرحوية من هذا النوع تستخدم لتنزيل المراكب التقليدية الى المياه في مرافئ اصلاح السفن، مثل هذا البوم الذي يظهر الى اليسار.
الزوجان ليندت، ١٩٣٦-١٩٣٧

أسفل يمين: كتبت فريا ستارك تقول "عند نهاية العصر كان الرعاة يعودون بقطعان الماعز ويتدفقون برفقة كالقطيفة السوداء عبر الأبواب المرصعة بالمسامير ويعبرون الأرض المفتوحة وخلفهم السور والأبراج المكسوة بضوء الشمس، حتى يصلوا الى الموقع المحدد حيث يأتي أصحاب الماعز الذين كانوا يدفعون مبلغ ثلاث آنات شهريا لقاء هذه الخدمة، ليستخلصوها من القطيع ويعودوا بها الى ديارهم. ويقال ان الماعز كانت تعرف طريقها الى الدار فتعود اليه وحدها اذا لم يأت أصحابها".
الزوجان ليندت، ١٩٣٦-١٩٣٧









أقصى اليمين: الشيخ أحمد المبارك الصباح في طريقه إلى مجلسه بقصر السيف القائم على شاطئ المدينة
الزوجان ليندت، ١٩٣٦-١٩٣٧

يمين: في المجلس الشيخ أحمد يستقبل مواطنيه الذين يتقدمون منه بالالتماسات والطلبات
الزوجان ليندت، ١٩٣٦-١٩٣٧

أسفل: نساء في الكويت
الزوجان ليندت، ١٩٣٦-١٩٣٧

مقابل: الشيخ أحمد المبارك الصباح حاكم الكويت، مع الملك عبد العزيز والأمير سعود بن عبد العزيز، وكان الملك عبد العزيز قد زار الكويت في فبراير من عام ١٩٣٦، بينما قام الشيخ أحمد بزيارة الكويت في عام ١٩٣٩، وكان دي غوري حاضراً في الزيارتين.
دي غوري، ١٩٣٦ أو ١٩٣٩

الصفحة التالية: كانت الحياة على متن مراكب اللؤلؤ شديدة الزحام وتنطوي على مشاق طاحنة فكان على الغواصين العيش في هذه المساحة الضيقة طيلة أسابيع طويلة، ولم يكونوا يستريحون من هذا العناء إلا بزيارات نادرة إلى البر القريب من مغاصات اللؤلؤ وكان الكثير من الغواصين من أهل البادية الذين يستغلون أشهر الصيف الطويلة الحارة في الغوص وراء اللؤلؤ، والبحارة الذين رجعوا من رحلات التجارة وكان معظم الغواصين يرتبطون بالنواخذة (القباطنة) بصلة دين مستديمة وقد وصف آلان فيليرز حياة الغواصين وصفاً دقيقاً في كتابه "أبناء سندباد".
الزوجان ليندت، ١٩٣٦-١٩٣٧

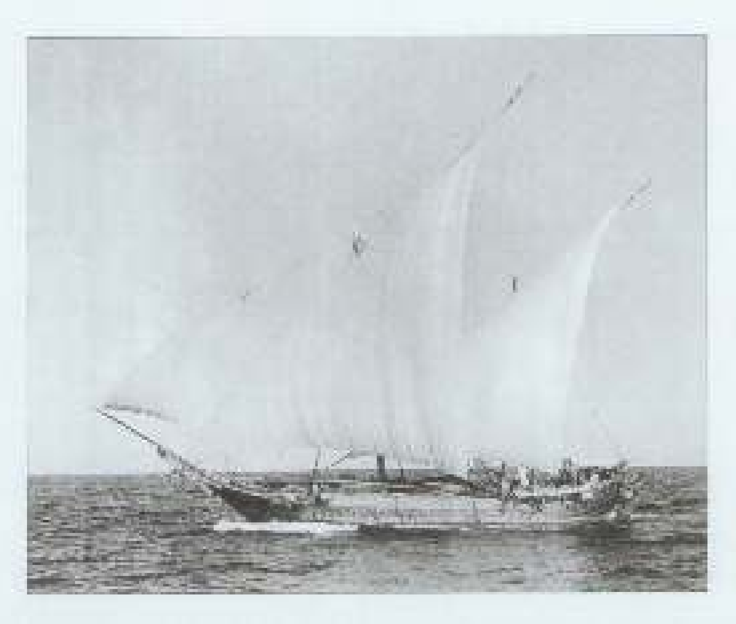


آلان فيليارز ١٩٣٩

إن أشمل السجلات الفوتوغرافية للكويت القديمة وأفضلها هو سجل الصور التي التقطها في عام ١٩٣٩ الملاح والمصور الصحافي الأسترالي المرموق آلان فيليارز. ومجموعة صور فيليارز محفوظة اليوم في متحف البحرية الوطني بلندن، وقد لعب فيليارز دورا حيويا في تأسيس الأرشيف الفوتوغرافي بالمتحف.

نبع اهتمام فيليارز بملاحة سفن الخليج التقليدية وبالإنجازات التجارية للبحارة الخليجيين من شغفه الدائم بأساليب الملاحة التقليدية. واستطاع فيليارز أن ينهل من خبراته الملاحية الواسعة ويطبقها في رحلته على متن سفينة كويتية من نوع البوم. فكان مثلا قد أبحر على السفينة الفنلندية لوميل ذات الأربع أشرعة عام ١٩٢١، وسافر بين عامي ١٩٢٨-١٩٣٢ في رحلات طويلة كملاح على متن السفن هرزوجين سيسيلي وغريس هاربور وبارما، إضافة إلى عمله في التدريب على الملاحة الشراعية على متن السفينة جوزيف كونراد. وقد حمل فيليارز الكاميرا في رحلاته لأول مرة حين أبحر على مركب لصيد الحيتان (اسمه سير جيمز كلارك روس) في مياه أنتاركتيكا القطبية عام ١٩٢٩، ثم اشترى كاميرا ليأخذها معه على السفينة هرزوجين سيسيلي عام ١٩٢٨، حين قام برحلته الشهيرة من أستراليا إلى بريطانيا عن طريق رأس الرجاء الصالح وهي رحلة سطر عنها سجلا شيقا نشره في كتاب بعنوان "فولموث فور أوردرز" (Falmouth for Orders) لقي رواجا واسعا وصار من العلامات الكلاسيكية لأدب الرحلات.

نما شغف فيليارز بدراسة الملاحة التقليدية غير الأوروبية لما انقضى عهد الملاحة الشراعية في أوروبا وبعد أن أمضى عقدين من الزمان يجوب بحار العالم ومحيطاته. رأى فيليارز أن "بالنسبة للمراكب الشراعية الخالصة، التي لا يزال بحارتها يستعملون أساليبهم الأصيلة دون تغيير، لم يتبق سوى المراكب العربية". ومن ثم شرع فيليارز في دراساته في عدن عام ١٩٣٨ من خلال اتصاله بهارولد إنغرامز (Harold Ingrams) فتعرف عن طريقه على الكابتن هيكينبوثام (T. Hickinbotham) الذي كان يملك مركبا تقليديا في عدن وكان صديقا حميما لعائلة الحمد التجارية الكويتية التي كانت تملك العديد



من المراكب ولديها مكتب في عدن. وبعد أن قام فيليارز برحلة قصيرة في البحر الأحمر على متن مركب يمني من نوع الزروق، عاد إلى عدن وهناك تعرف على عبد الكريم بن مشاري آل عبد الرزاق النجدي، وهو نوخذة كويتي شاب كان لديه سفينة بحرية من نوع البوم زنة ١٥٠ طنا يؤدي بها الرحلة التقليدية بين الكويت وساحل أفريقيا الشرقي التي كانت تدوم تسعة أشهر.

انضم فيليارز في ديسمبر عام ١٩٣٨ إلى عبد الكريم بن مشاري النجدي على متن سفينته البوم المسماة نصر الصالحين، حيث سافروا إلى المكلا ثم اتجهوا جنوبا بمحاذاة ساحل أفريقيا الشرقي إلى مومباسا وزنجبار ودلتا الروفيجي. ومن هناك رجعوا عائدين مع باكورة الرياح الموسمية التي تهب من الجنوب الغربي، فوصلوا إلى المطرح ومنها إلى البحرين ثم إلى محطتهم النهائية بالكويت. والتي وصلوها في أوائل شهر يونيو ١٩٣٩. وفي بداية أغسطس انضم فيليارز إلى تاجر لؤلؤ في رحلة بمركب شراعي تقليدي مروا فيها على الغواصين في مصائد اللؤلؤ بشمال

بوم محمل بالبضائع يمخر عباب البحر وقد نشر أشرعته كاملة وهو إما البوم المسمى نصر الصالحين الذي استقله فيليارز أو أحد المراكب الكويتية التي التقاها في طريق العودة إلى الكويت
فيليارز سنة ١٩٣٩



الخليج. ثم عاد فيليارز إلى الكويت فمكث بها فترة وجيزة قبل مغادرتها قاصداً البصرة. ومن هناك إلى أوروبا حيث انشغل بالحرب العالمية الثانية التي نشبت في شهر سبتمبر ١٩٣٩.

لقد خلد فيليارز رحلاته هذه في كتابه الكلاسيكي عن الأسفار البحرية، وعنوانه "أبناء السندباد". وبطبيعة الحال، ليس هذا الكتاب في نظر البحارة والملاحين الكويتيين التقليديين سوى رواية عن واقع حياتهم اليومية في البحر. ولكن القارئ الغربي يفتحه فيجد فيه رواية مثيرة عن المغامرات البحرية مليئة بالأوصاف التفصيلية الفريدة عن حياة بحارة الخليج العرب ومهاراتهم الملاحية وأساليبهم التجارية. فهو كتاب فيه ما يشبع كافة فئات القراء، من هؤلاء الذين يبغون قراءة رواية شيقة من أدب الرحلات، إلى المؤرخين وعلماء الاجتماع المتخصصين في تجارة المحيط الهندي، والهواة المولعين بالملاحة والابحار، وكل من يهتم بثقافة وعقلية أبناء الكويت والعرب عامة.

وسيرة آلان فيليارز تدفع المرء إلى مقارنته بالرحالة ويلفريد ثيسيغر، الذي لم يصف مشاق حياة البدو في الصحراء فحسب، بل عاش معهم وخبر تلك الحياة التي كانت تتشبث بأطراف البقاء. لقد انضم فيليارز إلى السفينة نصر الصالحين ليلاحظ ويتتبع ويعيش ويجرب حياة بحارة المراكب الشراعية العاديين حين كان عصر الأشرعة في أفول وكانت المحركات تتسابق لتحل محلها. ثم أن فيليارز، مثل ثيسيغر تماما، كان أديباً يكتب فتدب الروح في كل ما يسطره وفناناً يصوب الكاميرا فتخرج الصور من بين يديه مشبعة بالحياة.

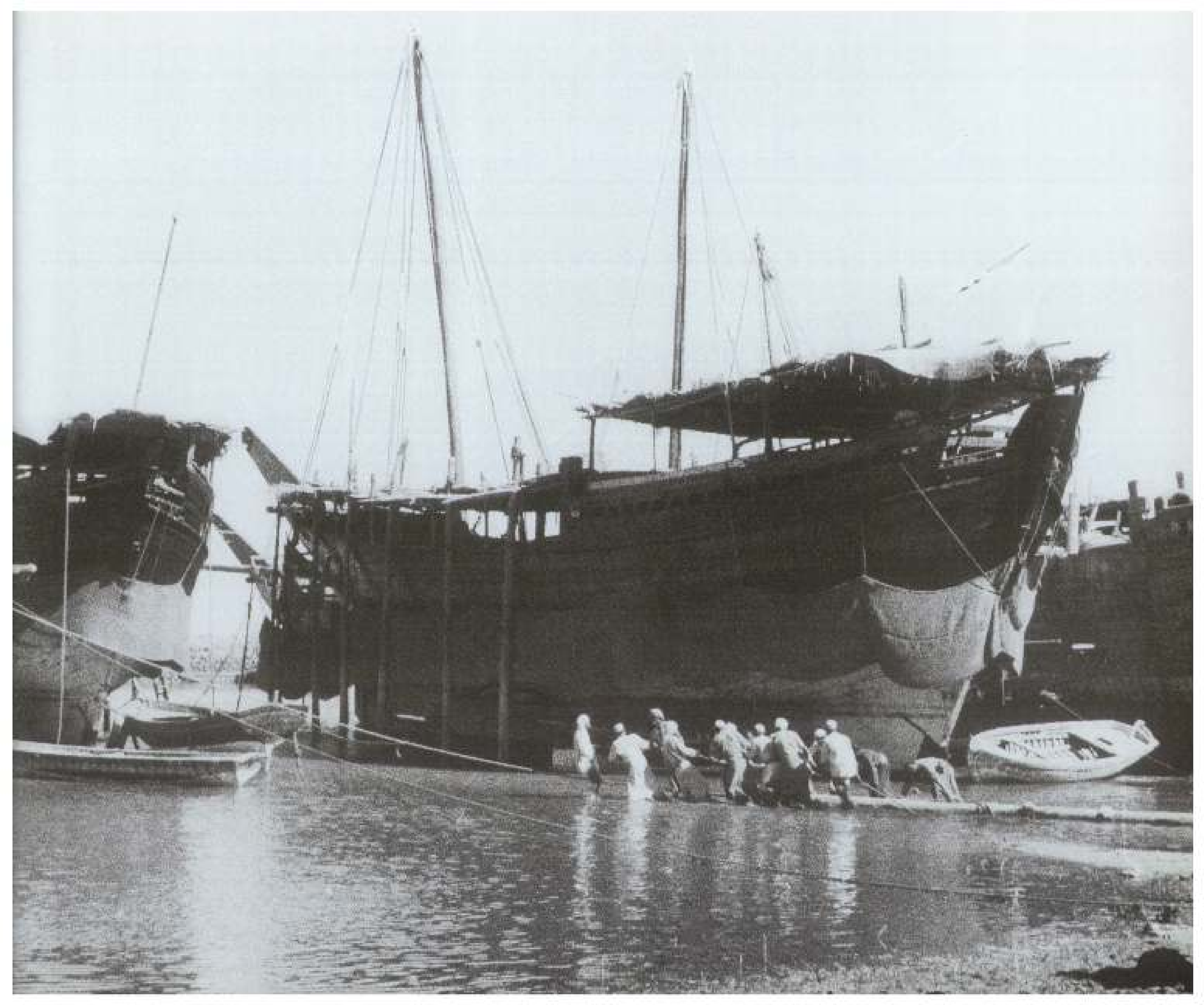
وفوق هذا وذاك، ربما تكمن أقوى أوجه الشبه بينهما في أن فيليارز تعامل مع الرجال الذين ركب معهم البحر في أسفاره الطويلة من منطلق الاحترام العميق لمنهجهم في الحياة وأسلوب معيشتهم. ولم تعكر تعاملاته معهم أي شائبة من مشاعر التفوق أو التعالي. وهذا الطابع لم يفارقه طيلة الوقت الذي أمضاه مع الكويتيين. ومع أنه كان يشعر أحياناً ولأسباب وجيهة بأن تمسكهم بالأساليب التقليدية القديمة كان يحجب عنهم فرصة إدخال التحسينات العملية البسيطة عليها، إلا أن الشعور الغالب عليه كان التواضع الشديد أمام ما رآه من طاقتهم الفائقة على العمل البدني الشاق، وجلدتهم الشديدة على حياة الحرمان في أعالي البحار، ومشاعر الأخوة الطبيعية السهلة التي ربطت بينهم، وبساطة ما ينتظرونه من الحياة. وموهبتهم الغريزية كبحارة والتي تفوقوا بها على افتقادهم للتعليم النظامي في شؤون الملاحة وأساليبها. لقد دأب فيليارز على أن يضع نفسه في محلهم، فيجد عادة أن قدراته لا ترقى إلى مستواهم. أما رفاقه الكويتيين فقد اعتبروا اهتمامه بهم لغزاً محيراً. ومع ذلك تحملوه وعاملوه بروح الضيافة والتسامح. وكتب هو عن ذلك يقول: "عاملني العرب معاملة حسنة، واليهم أدين بالجميل. وكثيراً ما تساءلت، ترى كيف يكون حال رجل من العرب يبحر معنا على سفننا ليجمع المعلومات والملاحظات من أجل تدوين كتاب عنا؛ يؤسفني القول إننا بلا شك سنرتاب في أمره. ولكنني أتمنى أن نتمكن من معاملته معاملة حسنة."

ومع أن فيليارز يكاد لا يذكر شيئاً عن نشاطه الفوتوغرافي في الكتاب، فإن الصور التي التقطها، في رحلته البحرية وفي الكويت، تعد بالمئات وتفوق أي مجموعة صور أخرى في اعطاء سجل مصور لمجتمع الكويت البحري. وبجانب كاميرات الصور الثابتة التي استخدمها في التقاط الصور مقاس ٣٥ مليمتراً والصور ذات المقاسات الأكبر، فإنه حمل أيضاً كاميرا للصور المتحركة استعملها في تصوير مقتطفات من الحياة على متن المراكب. وكانت الاعتراضات الوحيدة التي جابهت نشاطه الفوتوغرافي ناشئة من خوف المعترضين من العين الحسود. كما واجهته اعتراضات أخف من بحارة نصر الصالحين الذين اشتكوا من ان الصور التي التقطها لهم لم تكن بما يرضيهم من ناحية الجودة. وقد وصف فيليارز حكاية ذلك حين كانوا في زنجبار وطلب البحارة أن يصورهم ليبعثوا بالصور الى ذويهم:

كثيراً ما عجز من صورته عن التعرف على نفسه عندما وضعت بين يديه الصورة النهائية. وكانت احتجاجاتهم طويلة وصاخبة. فقد كانت لديهم تصورات عظيمة الغرور عن أنفسهم، وفكرة راسخة عن الصورة التي يلزم أن يظهروا بها، فيردون على أي تخلف عن تحقيق معاييرهم الصارمة بإدانتي وإلقاء الذنب على عاتقي، وضمن اتهامهم عن تحليلي بأنني لا أملك سوى أن أصورهم كما هم، وليس كما تخيل لهم أنفسهم.

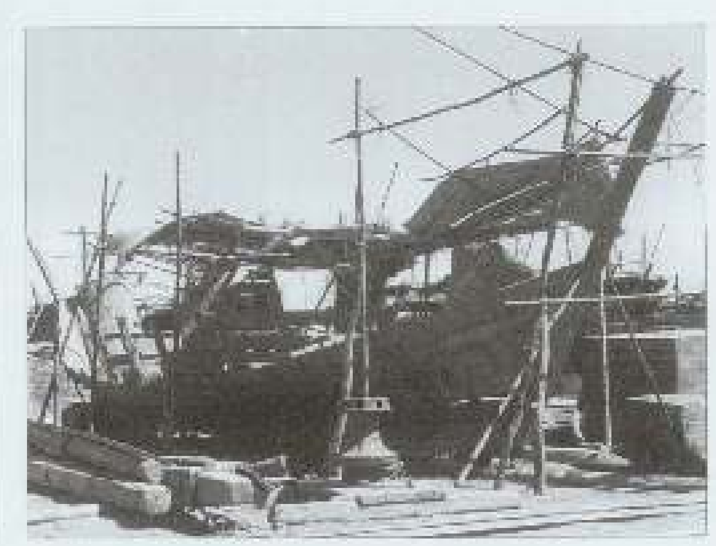
وجدت الحاحهم في هذا الأمر صعب التحمل في بعض الأحيان. ولكنني عندما رأيت السعادة الطفولية البريئة التي ملكتهم وهم يشترون أطرا للصور في سوق زنجبار، ثم راقبتهم وهم يمعنون أقصى العناية في

مقابل: يوم للشحن ومركب جلبوت صغير ومركب ساحلي، وقد تجمعوا في صورة فنية رائعة إبان استعداد البوم للابحار خارج حاجز الأمواج بالكويت. فيليارز، سنة ١٩٣٩



انتقاء أحد الكتبة العموميين لسطر الخطابات إلى أهاليهم ليرفقوا بها صورهم المحفوظة في هذه الأطر. عذرت لهم سلوكهم وسعيت مجدداً لتصوير ما جانبني التوفيق في تصويره أول الأمر. وتبادلت أيدي سائر الكويتيين في الميناء هذه الصور لتحاط بالمدح والإطراء. وسرعان ما أخذ بحارة المراكب الأخرى ينادون علي في الشوارع أو يزورون سفينتنا بغية تصويرهم. وكان لي في ذلك شرف كبير إلا أنني قررت الرفض.

والى أن وافته المنية عام ١٩٨٢ استمر هذا الرجل الفذ يسافر ويبحر ويصور ويقدم الاستشارات ويلقي المحاضرات عن عالم الملاحة الشراعية التقليدية التي غربت شمسها ويمكن الذهاب بالقول إن ما أنتجه من صور وكتابات يشكل أهم سجل بين أيدي أجيال اليوم عن السنوات الأخيرة من عصر الملاحة الشراعية. وكل من يهتم بتراث الكويت لا بد وأن يشعر بالعرفان للمصادفة السعيدة التي ارتقت بخطاه إلى متن سفينة بوم كويتية لأول مرة ذلك اليوم البعيد من شهر ديسمبر عام ١٩٣٨





يمين: زقاق تقليدي يفضي مباشرة إلى المرفأ
فيليارز سنة ١٩٣٩

أقصى اليمين: كانت الألواح الخشبية ترص جنباً إلى جنب ثم تكوى لتتشكل هيكل السفينة من المقدمة إلى المؤخرة، مع وضع الأضلع المؤقتة على الهيكل من الخارج للحفاظ على خطوط شكل السفينة قبل إضافة الأضلع العرضية النهائية وكانت عملية البناء تتم دون أدوات قياس، بل تعتمد على التقدير بالعين فقط وأسلوب بناء المراكب والسفن في الجزيرة العربية وإيران والهند كان على النقيض تماماً من الأسلوب الأوروبي المعتاد حيث كانت الأضلع تثبت أولاً ثم تثبت عليها الألواح الخشبية بالتوالي، وتنفذ العملية برمتها باستعمال الرسومات الدقيقة
فيليارز سنة ١٩٣٩

مقابل: سفن البوم تقف في المياه الضحلة بمرفأ الكويت لإجراء عملية الصيانة السنوية والرجال في الصورة يسحبون وراءهم أحد الصواري لتركيبه في سفينة منها
فيليارز سنة ١٩٣٩



يمين: بدء عملية بناء مركب شراعي تقليدي في الكويت. كانت العارضة الرئيسية تقام أولاً ثم تركب عليه الأعمدة المقدمة والمؤخرة.
فيليارز، سنة ١٩٣٩

مقابل: سفينة كبيرة من نوع البغلة أو الكنجة تقف وسط المراكب المزدحمة على شاطئ الكويت. وقد نقش مؤخر السفينة بأسلوب يذكر المرء بالسفن الشراعية البرتغالية الضخمة. وفي فصل الصيف، حين التقطت هذه الصورة، كانت سفن الشحن تمكث في الكويت لإجراء الإصلاحات، بينما تكون أسطول اللؤلؤ في رحلات الغوص. وقد ذكر فيليارز أن السفن القديمة الكبيرة أمثال هذا المركب كانت نادرة حتى في الكويت بحلول عقد الثلاثينيات.
فيليارز، سنة ١٩٣٩





أعلى: كان صنع الأشرعة، مثل غيره من الأنشطة في الكويت، عملية جماعية ومناسبة للحديث والتواصل بين الناس
فبراير سنة ١٩٣٩



يمين: الصيادون يقومون بإصلاح شباكهم في شوارع الكويت القديمة
فبراير سنة ١٩٣٩



يسار: كان أحد شوارع السوق مخصصاً للوازم المراكب وتجهيزاتها حيث تباع الصواري والحبال ومختلف قطع الغيار
فبراير سنة ١٩٣٩

مقابل: كانت الجلفطة من المهام الحيوية في عملية الإصلاح الصيفية حيث يتم حشو الألياف المزيتة بين ألواح البدن لضمان العزل المائي.
فبراير سنة ١٩٣٩









أعلى يمين: تاجر يتفاوض على شراء اللآلئ على متن مركب في أحد مغاصات اللؤلؤ ونرى في الصورة طقم من المناخل المدرجة الأحجام وميزان صغير وصندوق للخزن وقطعة قماش وكانت جميعها من الأدوات الضرورية التي لا يستغني عنها تاجر اللآلئ
فيلبارز سنة ١٩٣٩

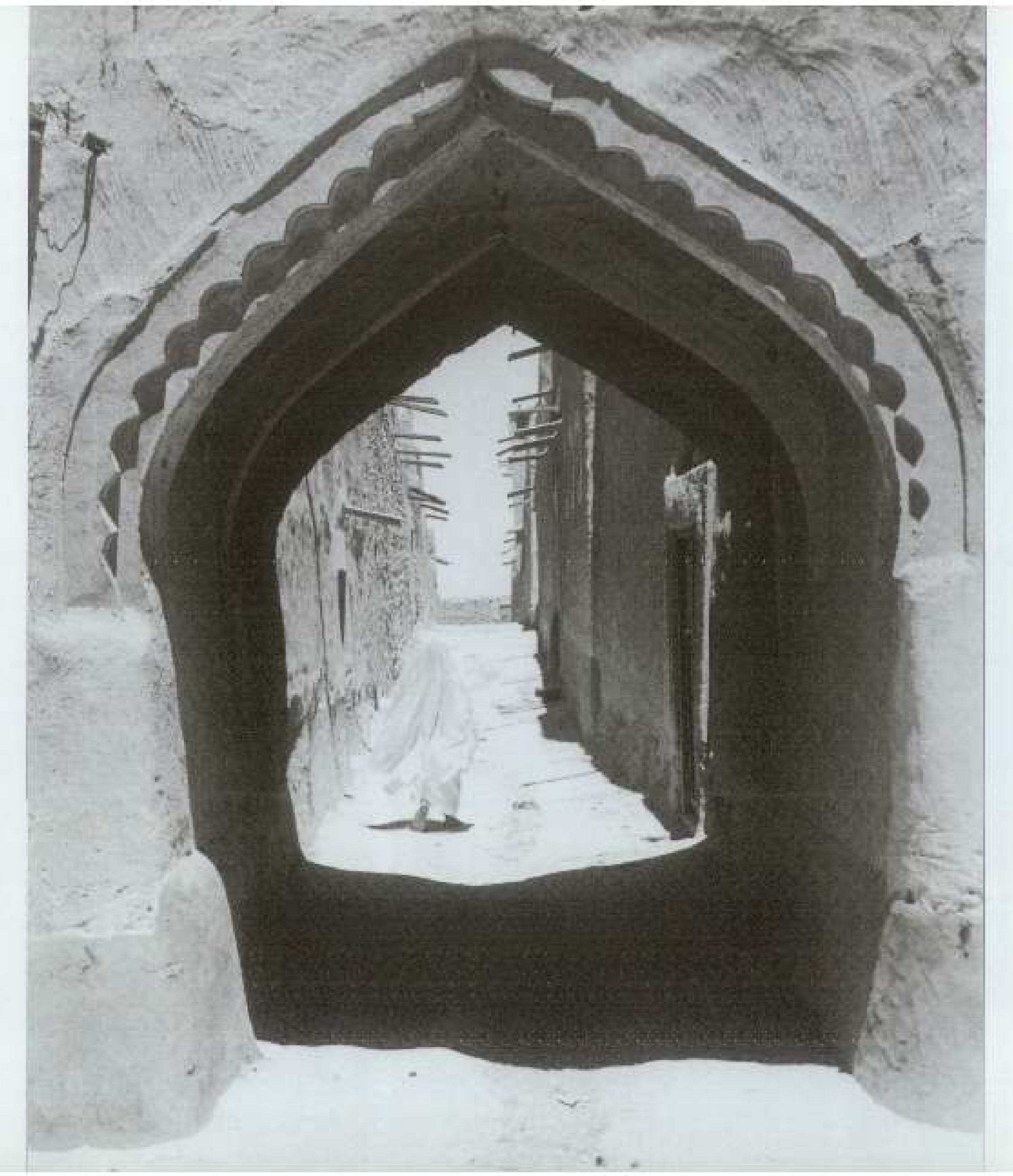
أسفل يمين: كانت النساء تستخدم هذا الحاجز الصخري كمكان مثالي لغسل الملابس.
فيلبارز سنة ١٩٣٩

أقصى اليسار: النساء في طريق العودة إلى منازلهن في حر الظهر والشمس عمودية تقريباً فوقهن
فيلبارز سنة ١٩٣٩

مقابل: عدد من السقائين مع حميرهم يأخذون الماء من مركب نقل الماء من شط العرب، ويحملونه في الصفائح والقرب ليبيعوه في شوارع المدينة
فيلبارز سنة ١٩٣٩







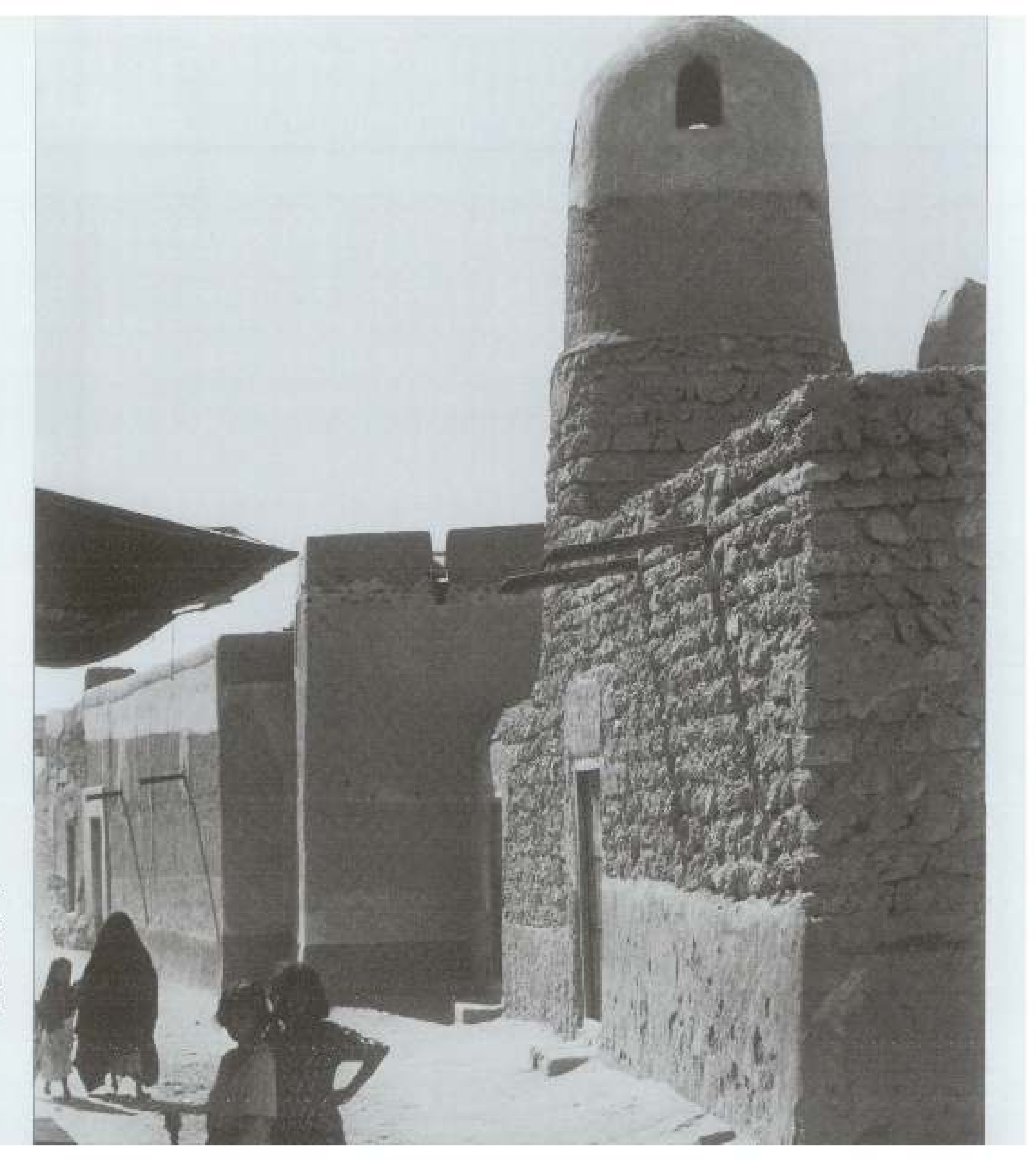
بعض الأقواس الجميلة المشابهة لهذا القوس تعطي شوارع الكويت طابعها الخاص.
فيلبارز سنة ١٩٣٩

مقابل: بعد مشق رحلات التجارة مع الهند وشرق افريقيا والتي تستغرق تسعة أشهر كان بحارة الكويت يفضلون تمضية وقتهم سوية ليتبادلوا الأخبار مع بحارة المراكب الأخرى وليكتشفوا من يخطط للرحلات القادمة وليعززوا علاقاتهم القريبة مع التجار والنواخذة ونرى هنا مجموعة منهم تستريح في الظل خارج منزل أحد الأثرياء.
فيلبارز سنة ١٩٣٩



صورة لفناء منزل أحد الميسورين في الكويت، وفي المواجهة مدخل الديوانية القائم بجوار باب البيت الرئيسي (إلى اليسار) المطل على الشارع. والشكل الماسي الظاهر بين العمودين هو في الواقع هوائي راديو. والبيوت التقليدية تقام حول فناء مركزي في وسطه بئر به مياه جوفية مالحة أو يتصل بخزان أرضي تتجمع فيه مياه الأمطار الساقطة على سقف المنزل.
فيليارز، سنة ١٩٣٩

كان بكل حي من أحياء المدينة مسجد
محلي صغير حيث كانت أحياء المدن
المسلمة تتحدد مساحتها بالمنطقة
التي يسمع فيها بوضوح صوت مؤذن
المسجد
فيلبارز سنة ١٩٣٩







يمين: مدرسة المباركية التي افتتحت عام ١٩١١ وسميت تيمنا بالشيخ مبارك. وقد سعت المدرسة لتحسين تعليم القراءة والكتابة والحساب والذي كان يتاح حتى ذلك التاريخ لعدد قليل من التلاميذ. وفي عام ١٩٢١ تم افتتاح مدرسة أخرى هي مدرسة الأحمدية. وكان أبناء الشيوخ والتجار يتعلمون في مدرسة المباركية، ومنهم سمو الشيخ جابر الأحمد الصباح. ويبدو أن هذه الصورة التقطت أثناء دروس تعليم اللغة الإنجليزية. وقد حدث تطور كبير في نظام التعليم بالكويت عام ١٩٣٦ حين أتيحت فرصة التعليم للجميع. وفي عام ١٩٣٦ افتتحت أول مدرسة للبنات بالكويت.
فيلبارز، سنة ١٩٣٩

مقابل: سوق الكويت المغطى، وتظهر فيه المحلات الصغيرة المعتمة وتضيئه حزم أشعة الشمس المتفرقة، وهو يشبه غيره من أسواق الجزيرة العربية إلى حد بعيد، ولكنه يتميز بالهيكل المعقد المستخدم في تعليق السقف.
فيلبارز، سنة ١٩٣٩







أعلى: بيوت الشعر خارج مدينة الكويت
فيلبارز سنة ١٩٣٩

أسفل: بعض أهل البادية سعداء بالجلوس أمام عدسة الكاميرا
فيلبارز سنة ١٩٣٩

مقابل: الجمال في الصفاة وكأنها في موقف للانتظار.
فيلبارز سنة ١٩٣٩

صور فترة الحرب العالمية الثانية. ١٩٤٠-١٩٤٤

حين غادر فيليارز الكويت إلى أوروبا للانضمام الى المجهود الحربي، كانت الكويت تدخل مرحلة من المشاق أشد حتى من أزمات عقد الثلاثينيات. فالحرب العالمية الثانية قضت على صناعة النفط في مهدها، ومرت فترات كان يصعب فيها بل كاد يستحيل، الحصول على الملابس والأدوية وحتى الطعام. وفي ذلك الوقت اثبتت الكويت تحت قيادة الشيخ أحمد المبارك الصباح انها حليفة مفيدة للبريطانيين، حيث سمح لهم الشيخ أحمد بوضع الطائرات الحربية في أراضيه لمجابهة الاضطرابات في العراق. وقد اعترفت بريطانيا بمساهمة الشيخ أحمد في المجهود الحربي عام ١٩٤٤ حين منحته وسام نجمة الهند لرتبة الفارس القائد. وقام بالتصوير في هذه المناسبة مصور الجيش البريطاني الرقيب برمان.

كان اندلاع القتال قد أدى الى اجلاء عائلات العاملين لدى شركة نفط الكويت. الا أن اسرة ديكسون وسيدات الإرسالية التبشيرية الأمريكية ظلوا في الكويت طيلة فترة الحرب. وقد أمضى هارولد ديكسون وزوجته معظم وقتهما في مساعدة البدو الذين كانت الحرب قد دفعت بالكثير منهم الى شفير المجاعة. وأعيد تعيين هارولد ديكسون مرة أخرى معتمداً سياسياً لبضعة أشهر من عام ١٩٤١ لسد الفجوة الشاغرة بين رحيل الميجور غالواي (Galloway) وقدوم الميجور ميكينبوثام.



يسار: أحد الشوارع الجديدة المفضية إلى المرفأ
إم أوكونور، حوالي سنة ١٩٤٠

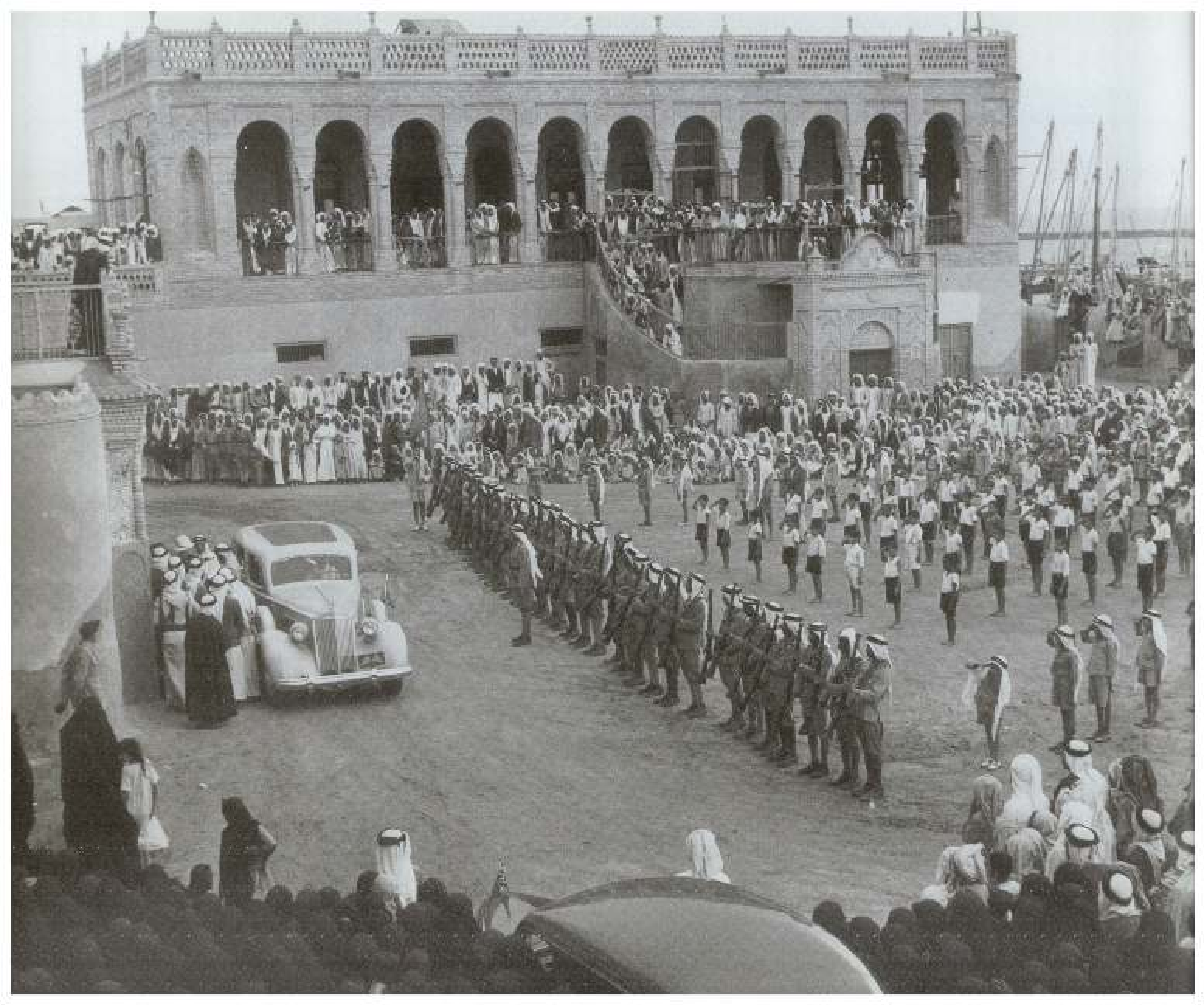
مقابل: صبي يمسك بطوق في شارع يمتد بين البيوت والمرفأ - وهو مشهد تتجسد فيه روح الكويت القديمة ولم يتم الاستدلال بعد على هوية صاحب الصورة ولا على تاريخ أو سبب زيارته للكويت.
ام اوكونور، حوالي سنة ١٩٤٠





يسار: سمو الشيخ أحمد يتلقى تهنئة الكويتيين بعد تقلده وسام الهند وكانت هذه المناسبات تساهم في زيادة مكانة الحاكم وسط رعاياه. برمان، سنة ١٩٤١ (المتحف الحربي الإمبراطوري برمز اي٢٨٤٤٣)

مقابل: سيارة الشيخ أحمد تصل إلى قصر السيف حيث قام السير جيفري برايور، المقيم السياسي البريطاني بالخليج العربي، بتقليده وسام الهند في السادس عشر من مايو عام ١٩٤١ برمان، سنة ١٩٤١ (المتحف الحربي الإمبراطوري برمز اي-٢٨٤٤٠)





سمو الشيخ أحمد الجابر الصباح،
حاكم الكويت، يقف أمام عدسة
الكاميرا إثر تقلده وسام الهند. وكان
الزي الرسمي للمسؤولين البريطانيين
أمامها يساهم في إضفاء جو من الهيبة
والوقار على هذه المناسبة الهامة، إلا
أن نفس هذه الأزياء تبدو لنا اليوم
غريبة بعض الشيء. ويقف السير
جيفري برايور عن يسار الشيخ أحمد،
وعن يمينه يقف الكومودور هوسون
قائد القوات البحرية بالخليج، ثم
بيلي المعتمد السياسي البريطاني
بالكويت.
برمان، سنة ١٩٤٤ المتحف الحربي
الامبراطوري برمز إي٢٨٤٤٤]



كويتيون يؤدون رقصة الحرب التقليدية احتفالاً بتقلد الشيخ أحمد وسام الهند
برمان سنة ١٩٤٤ المتحف الحربي الإمبراطوري برمز إي(٢٨٤٤٨)

ويلفريد ثيسيغر، عامي ١٩٤٥ و١٩٤٩



قام ويلفريد ثيسيغر بأول زيارة له الى الكويت عام ١٩٤٥، وكان أيامها قد غدا بالفعل رحالة ذا مراس وخبرة. وكان قد قام عام ١٩٣٣ برحلته في منطقة دناكل بالحبشة، وهي اولى رحلاته الهامة، وبعدها انضم عام ١٩٣٥ إلى الدائرة السياسية بالسودان. ثم التحق عام ١٩٤٠ بقوات الدفاع السودانية. ومن السودان ذهب إلى جبل الدروز في سوريا وشارك في حملة مع القوات الجوية الخاصة (اس إيه أس) في الصحراء الغربية. ثم عاد ثيسيغر إلى الحبشة عام ١٩٤٥، حيث التقى في اديس ابابا بالعالم أوبي لين الخبير في جراد الصحراء والذي كان يعمل لدى منظمة الغذاء والزراعة بروما وكان لين يبحث عن شخص ليسافر معه في صحراء الربع الخالي لجمع المعلومات عن تحركات الجراد. فانتهز ثيسيغر هذه الفرصة وانضم معه عام ١٩٤٥ إلى فريق كلف بإجراء الدراسات في المملكة العربية السعودية تحت قيادة دزموند فازي-فيتسجيرالد (Desmond Vesey-Fitzgerald).

وصل ويلفريد ثيسيغر الى الكويت في قافلة من سيارات الجيب والشاحنات يقودها فازي-فيتسجيرالد بعد عبور الجزيرة العربية انطلاقا من جدة. وبعد وصوله الكويت سقط ثيسيغر فريسة للحمى ومكث في ضيافة اسرة ديكسون الذين ادركوا انه رجل من قالبهم، حيث كتبت فيوليت ديكسون تقول "كانت هذه بداية لصداقة دائمة جديدة، فثيسيغر من أبناء جيل جديد من عاشقي الجزيرة العربية".

ومثل رحلات فيلبارز، كانت رحلات ثيسيغر ضمن المرحلة الأخيرة من تطور الرحلات الاستكشافية التقليدية. وقد اتسمت روايات ثيسيغر بمراجعة الذات والتواضع والاستعداد التام لإجراء المقارنات المنصفة بوضع ثقافته وقدراته في كفة الميزان وثقافة وقدرات العرب الذين عرفهم في اسفاره في الكفة الأخرى، فترجح في ميزانه الكفة العربية. وكان ثيسيغر يقبل العرب كما هم، دون التمسك بالأفكار والتصورات المسبقة النابعة من ما زعم عن البدو من حب بطولي للحرية والانحدار من نسل الأنبياء أو النزعة الدموية للسلب، وكلها جميعها اوهام عتمت رؤية كتاب بريطانيا من أبناء العصر الفيكتوري. كان فيلبارز وثيسيغر متحرري الفكر لا يشوب نظرتهما ذلك السلوك الرومانسي القديم اوكان

يسار: صانع سفن يتبع أحد أقدم طرق الثقب في الخارج، حيث يستعمل القوس والمثقاب – اثنان من أقدم أدوات صانعي السفن
ثيسيغر سنة ١٩٤٩

مقابل: طابور من الحمير ينقل الماء إلى الساحل من على متن سفينة بوم قادمة من شط العرب. وقد استمرت المراكب الشراعية تنقل المياه إلى الكويت رغم استعمال أربع ناقلات لجلب المياه من شط العرب منذ عام ١٩٤٦ ولم يتوقف الاعتماد على هذا المصدر إلا بعد قيام الشيخ عبد الله السالم بافتتاح محطة لتحلية المياه عام ١٩٥٣.
ثيسيغر سنة ١٩٤٩



لورنس T.E. Lawrence من أقوى دعاته) الذي قام على الاعتقاد بوجود وشائج خاصة بين الإنجليز والجزيرة العربية تعطي الإنجليزي بصيرة نافذة خاصة عن العرب وتجعله يؤمن كمن يؤمن بالأساطير أن تلك الوشائج تخلع عليه حق تنظيم شؤون أبناء المنطقة. وبفضل خلاص فيلبارز وثيسيغر من هذه المعتقدات الخاطئة صارت كتاباتهما تكشف عن فهم أصيل وواقعي لمميزات سكان الجزيرة من صلابة العود وبساطة المعيشة وكرم الضيافة، وما يطرأ عليهم بعض الأحيان من صلابة الفؤاد ومضي العزيمة. ومما يزيد قوة وعمق ما سطراه إدراكهما أنهما بمجرد وجودهما في وسط العرب قد ساهما في إسدال الستار على تلك المزايا التي ألهمتهما وشدتهما.

خلال الفترة بين رحلة ثيسيغر الأولى إلى الكويت ورحلته التالية عام ١٩٤٩، قام بعبور الربع الخالي في رحلتين عظيمتين جلبتا له الشهرة والصيت كمستكشف رائد. كما سافر في رحلات بجنوب الحجاز وعسير وجنوب الجزيرة العربية كانت أقل شهرة ولكن على نفس القدر من الأهمية من عدة أوجه. وعندما عاد ثيسيغر إلى الكويت عام ١٩٤٩ كان في طريقه إلى بوشهر التي بدأ منها أسفاره اللاحقة في إيران. ومع أن مدة زيارته للكويت كانت وجيزة إلا أنه التقط خلالها عدداً من الصور الممتازة التي سجل فيها مشاهد الكويت القديمة عشية عصر التحديث السريع في الخمسينيات.

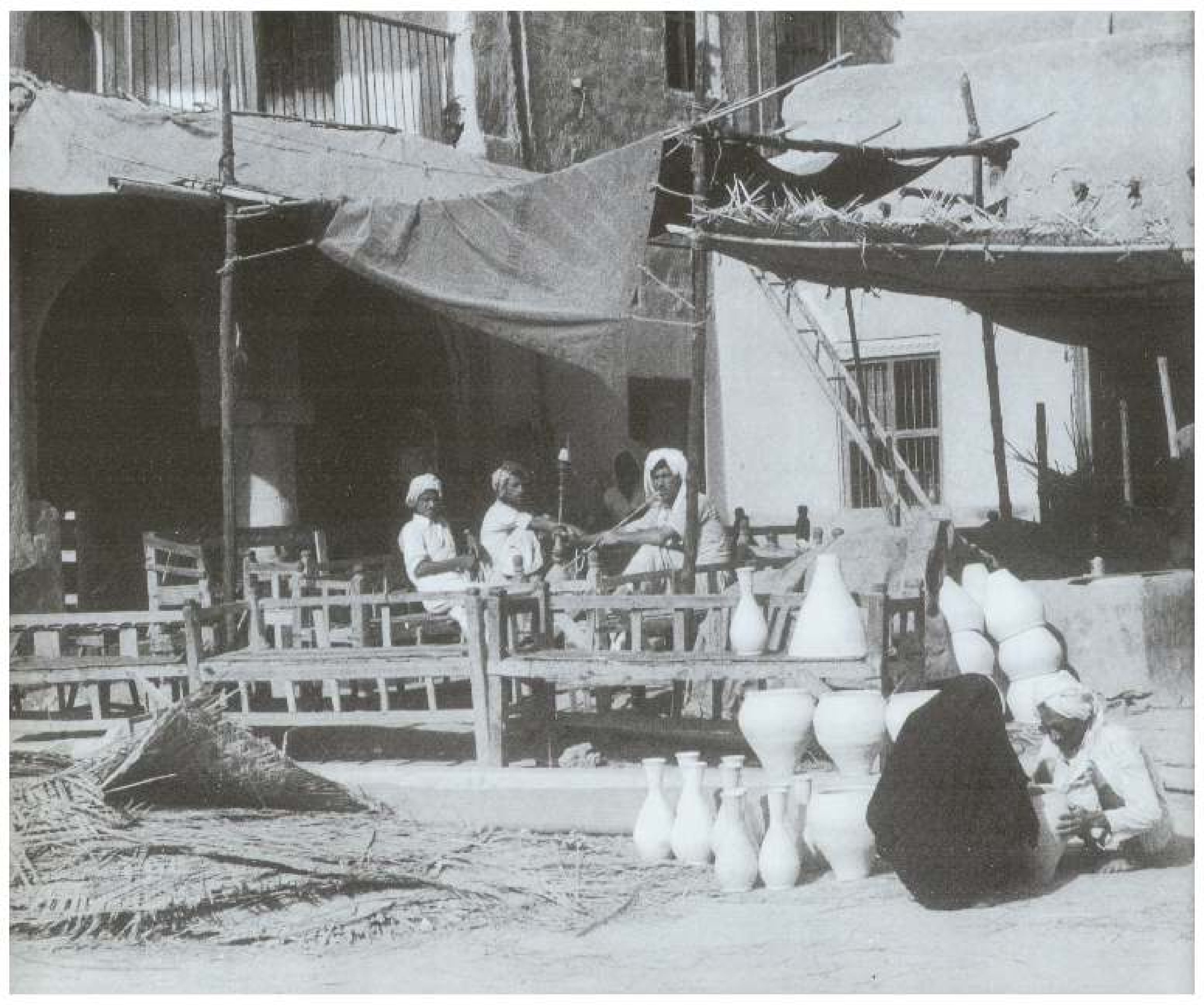
كان ثيسيغر قد اشترى أول الأمر كاميرا من طراز لايكا ٢ عام ١٩٣٤، حيث أن صغر حجمها وصلابة بدنها جعلها رفيقاً مثالياً له في رحلاته الشاقة. وقد واصل استعمال هذه الكاميرا حتى عام ١٩٥٩. ووجد أن أفضل وسيلة لحمايتها ضد الرمال خلال أسفاره في الجزيرة العربية هي حفظها في كيس من جلد الماعز، وهو نفس الأسلوب الذي كان أهل البادية يتبعونه في الحفاظ على بنادقهم. وفيما بعد كتب ثيسيغر قائلاً إنه لم ينظر إلى التصوير الفوتوغرافي بعين الجدية في بادئ الأمر، ولم يبدأ تقدير قيمة هذا الفن إلا أثناء رحلته الأولى في جنوب شبه الجزيرة العربية عام ١٩٤٥. وقد استعمل أولاً عدسة من المقاس التقليدي وفلتر أصفر ثم استعان في الخمسينيات بعدسة لتصوير الأشخاص من طراز الماريت/ ٩٠ وعدسة بزاوية واسعة من طراز الماريت/ ٣٥. وبحلول نهاية عقد الخمسينيات كان التصوير الفوتوغرافي قد صار الوسيلة الرئيسية التي سجل بها رحلاته، كما وجد في مجموعة الصور الفوتوغرافية المبكرة الضخمة التي جمعها أداة بحث ثمينة عاونته على تدوين مؤلفاته اللاحقة.

رغم أن ثيسيغر تحدث دوماً عن تفضيله لتصوير الأشخاص، كانت أهم صوره بالنسبة للمؤرخين هي تلك التي تسجل أساليب الحياة القديمة التي ولى عهدها. وبجانب مهارته وحنكته في ذلك المضمار، يتضح من صور ثيسيغر الخاصة بالجزيرة العربية أنه كان فناناً أيضاً، حيث يضيف إحساسه المرهف والفطري إلى التركيب الجمالي لمشاهد الحياة اليومية والتقاليد والأنشطة الاعتيادية، وبالتالي شيد بالتدريج لوحة بليغة ومدهشة للعديد من السمات الأزلية التي لا تنسى للجزيرة العربية ولأبنائها وكيفية تعاملهم مع بيئتهم القاسية. ومن أمثلة ذلك صور الأسواق الأسبوعية ومحيطها، والبدو في خيامهم أو في ترحالهم، ورفع المياه من آبار الصحراء والواحات، والماشية والأغنام وفنون الزراعة، والقرى والمدن والموانئ، والحيوانات والنباتات البرية التي انقرضت اليوم، والحياة على متن المراكب الشراعية.

من السهل رؤية الإحساس الفني المرهف الذي تمتع به ثيسيغر في المجال الفوتوغرافي بقراءة ما سطره عن التصوير بالأبيض والأسود والذي واظب عليه طيلة حياته. فقد كتب عام ١٩٨٧ يقول: "لم التقط قط صورة ملونة، ولا شعرت يوماً بالرغبة في ذلك. ولربما يعود السبب جزئياً إلى تفضيلي للرسومات باللون الواحد على اللوحات الملونة، وإعجابي بالخط لا باللون ... فباستخدام الفيلم الأبيض والأسود يكون لكل موضوع مصور إمكانيات واحتمالات متعددة، تتحدد وفقاً لاستخدام المصور الفوتوغرافي للضوء والظل".

مقابل: امرأة تتفحص هذه الأوعية المعروضة للبيع بينما يستريح بعض الرجال في المقهى
ثيسيغر، سنة ١٩٤٩

الصفحة التالية: صبيان يحملان الجمر بقرب المياه. وتبرز هذه الصورة حس ثيسيغر الرفيع وقدرته الفنية على المزج الناجح بين الموضوع والضوء والشكل الجمالي
ثيسيغر سنة ١٩٤٩





A Record of the Negotiations, 1911–34. London 1975.

Çizgen, E. *Photography in the Ottoman Empire*. Istanbul 1987.

Coe, B.W. "The Evolution of Photography", *The British Journal of Photography*, 12 May 1972. London.

Coe, B. and Gates, P. *The Snapshot Photographers: The Rise of Popular Photography 1888–1939*. London 1977.

Cottrell, A.J. (ed.) *The Persian Gulf States*. Baltimore 1980.

Cursetjee, C.M. *A Voyage in the Gulf: C.M. Cursetjee's* The Land of the Date, 1918. Ed. Paul Rich. Cambridge 1991.

Curzon, G.N. *Tales of Travel*. London 1924.

De Gaury, G. *Through Wahhabiland on Camelback, 1912*. (Raunkiaer's Danish original tr. and ed. de Gaury). London 1969.

— *Traces of Travel*. London 1983.

Dickson, H.R.P. *The Arab of the Desert*. London 1949.

— *Kuwait and Her Neighbours*. London 1956.

Dickson, V. *Forty Years in Kuwait*. London 1970.

Diski, J. *Skating to Antarctica*. London 1997.

Dixey, A.D. "In the Persian Gulf", *Church Missionary Review* 58, London 1907.

Earle, E.M. Turkey, the Great Powers and the Baghdad Railway. New York 1924.

Facey, W.H.D. *Riyadh – The Old City*. London 1992.

— *The Story of the Eastern Province of Saudi Arabia*. 1994.

Facey W.H.D. and Grant, G. *Saudi Arabia by the First Photographers*. London 1996.

Abu Hakima, A. *History of Eastern Arabia. The Rise and Development of Bahrain and Kuwait*. Beirut 1965.

— *The Modern History of Kuwait, 1750–1965*. London 1983.

— *Eastern Arabia – Kuwait: Historic Photographs 1900–1936*. London 1986.

Anthony, T.A. "Documentation of the Modern History of Bahrain from American Sources (1900–1938)", *Bahrain Through the Ages: The History*, ed. A.K. Khalifah and M. Rice. London 1993.

Barney, Revd F.J. and de Witt, Revd A. *History of the Arabian Mission*. New York 1926.

Bidwell, R. (ed.) *The Affairs of Kuwait 1896–1905*. Cambridge 1965.

Bidwell, R. *Travellers in Arabia*. London 1976.

Brett, O.L. "Commander Alan John Villiers", *Sea History*, Summer 1984.

Burchardt, H. "Ost-Arabien von Basra bis Maskat auf Grund eigener Reisen", *Zeitschrift der Gesellschaft für Erdkunde zu Berlin*. Berlin 1906.

Calverley, E.T. *My Arabian Days and Nights. A Medical Missionary in Old Kuwait*. New York 1958.

Carruthers, D. "Captain Shakespear's Last Journey", *Geographical Journal* May 1922. London.

Cheveddén, P.E. *The Photographic Heritage of the Middle East*. Malibu 1981.

— "Making Light of Everything: Early Photography of the Middle East and Current Photomania", *Middle East Studies Association Bulletin*, Dec. 1984.

Chisholm, A.H.T. *The First Kuwait Oil Concession Agreement*.

Kelly, J.B. *Britain and the Persian Gulf 1795–1880*. London 1968.

— *Arabia, the Gulf and the West*. London 1980.

Kumar, R. *India and the Persian Gulf Region, 1858–1907*. London 1965.

Kunz, G.F. and Stevenson, C.H. *The Book of the Pearl. History, Art, Science and Industry of the Queen of the Gem*.

Lewcock, R. and Freeth, Z. *Traditional Architecture in Kuwait and the Northern Gulf*. London 1978.

Lewin, E. *The German Road to the East. An Account of the* Drang nach *Osten and of Teutonic Aims in the Near and Middle East*.

Lienhardt, P. *Disorientations. A Society in Flux: Kuwait in the 1950s*. Reading, UK 1993.

Longhurst, H. *Adventure in Oil. The Story of British Petroleum*. London 1959.

Lorimer, J.G. *Gazetteer of the Persian Gulf, 'Oman and Central Arabia*. 2 vols., Calcutta 1909–15.

Mansel, P. *Sultans in Splendour. The Last Years of the Ottoman World*. London 1988.

Neglected Arabia. Quarterly Reports and Letters of the Arabian American Mission. Nos. 1–183, 1892–1938. Archive Editions, Gerrards Cross 1988.

Newhall, B. *Airborne Camera. The World from the Air and Outer Space*. London and New York 1969.

Obolensky, C. *The Russian Empire. A Portrait in Photographs*. London 1980.

Oppenheim, M. von, *Vom Mittelmeer zum persischen Golf durch den Hauran, die Syrische Wüste und Mesopotamien*. Berlin 1899–1900.

Palgrave, W.G. *Narrative of a Year's Journey through Central and Eastern Arabia (1862–3)*. 2 vols, London 1865.

— *The Emirates by the First Photographers*. London 1996.

Falconer, J. *Sail and Steam. A Century of Seafaring Enterprise*. London 1993.

Finnie, D.H. *Shifting Lines in the Sand. Kuwait's Elusive Frontier with Iraq*. London 1992.

Freeth, Z. *Kuwait Was My Home*. London 1956.

Graham-Brown, S. *Images of Women: The Portrayal of Women in Photography of the Middle East, 1860–1950*. London 1988.

Grant, G. *Historical Photographs of the Middle East from the Middle East Centre, St Antony's College, Oxford*. Leiden 1985.

— *Middle Eastern Photographic Collections in the United Kingdom*. Middle East Libraries Committee Research Guides 3, Durham 1989.

Graves, P. *The Life of Sir Percy Cox*. London 1941.

Great Britain, Admiralty, Naval Intelligence Division. *Iraq and the Persian Gulf*. London 1944.

Habib, J.S. *Ibn Sa'ud's Warriors of Islam: the Ikhwan of Najd and their Role in the Creation of the Sa'udi Kingdom 1910–1939*. Leiden 1978.

Harrison, P.W. *The Arab at Home*. London 1924.

Haarmann, U. "Early Sources on Kuwait. Murtada b. 'Ali b. 'Alwan and Carsten Niebuhr: an Arab and a German Report from the Eighteenth Century", *Hadith al-Dar*, Kuwait 1995.

Al-Hijji, Y.Y. *Old Kuwait. Memories in Photographs*. Kuwait 1997.

Hogarth, D.G. *The Penetration of Arabia*. London 1904.

Hoskins, H.L. *British Routes to India*. London 1926 and 1966.
Jeffrey, I. *Photography. A Concise History*. London 1981.

Jouannin, A. "Sur les rives du Golfe Persique. Notes de voyage 1903", *Bulletin de la Société de Géographie Commerciale de Paris* 26. Paris 1904.

Wilfred Thesiger's Photographs: "A Most Treasured Possession". Pitt Rivers Museum catalogue introduced by E. Edwards. Oxford 1993.

Tidrick, K. *Heart Beguiling Araby*. London 1981.

Tournier, M. *The Golden Droplet*, London 1988. (First published as *La goutte d'or*)

Tuson, P. *The Records of the British Residency and Agencies in the Persian Gulf*. India Office Library and Records, London 1979.

Vaczek, L. and Buckland, G. *Travellers in Ancient Lands: A Portrait of the Middle East, 1839–1919*. Boston 1981.

Villiers, A. *Sons of Sindbad*. New York 1940.

Webb, V-L. "Missionary Photographers in the Pacific Islands: Divine Light", in Edwards, E., ed., *History of Photography: Anthropology and Colonial Endeavour*. Oxford 1977.

Whigham, H.J. *The Persian Problem*. London 1903.

Wilson, A.T. *The Persian Gulf*. London 1928.

Winstone, H.V.F. *Captain Shakespear*. London 1976.

— *Leachman: "O.C. Desert"*. London 1982.

— *The Illicit Adventure*. London 1982.

Winstone, H.V.F. and Freeth, Z. *Kuwait: Prospect and Reality*. London 1972.

Zwemer, S.M. *Arabia: the Cradle of Islam*. New York 1900.

— *Childhood in the Muslim World*. London 1915.

Perez, N. *Focus East: Early Photography in the Near East (1839–1885)*. New York 1988.

Al-Rasheed, M. *Politics in an Arabian Oasis: The Rashidis of Saudi Arabia*. London 1991.

Al Rashoud, C.F. *Dame Violet Dickson. "Umm Saud's" Fascinating Life in Kuwait 1929–1990*. Kuwait 1997.

Raunkiaer, B. *Gennem Wahhabiternes Land paa Kamelryg*. Copenhagen 1913.

Rezvan, E. *Russian Ships in the Gulf, 1899–1903*. Guildford 1993.

Rosenblum, N. *A World History of Photography*. New York 1984.

Rush, A. *Al-Sabah: History and Genealogy of Kuwait's Ruling Family 1752–1987*. London 1987.

Ruthven, M. *Freya Stark in Iraq and Kuwait*. Guildford 1994.

Slot, B.J. *The Origins of Kuwait*. Leiden 1991.

— *The Arabs of the Gulf 1602–1784*. Leidschendam 1995.

Sontag, Susan *On Photography*. Harmondsworth 1978.

Stanford, P. "Alan Villiers: 'Here in the Battered Bark All Men Mattered'." *Sea History*, Summer 1984.

Stark, F. "Kuwait", *Geographical Magazine* Oct. 1937. London.

— *Baghdad Sketches*. London.

— *Beyond Euphrates. Early Travels 1928–1933*. London 1951.

— *The Coast of Incense. Autobiography 1933–1939*. London 1953.

Surtees, V.N. *HMS Emerald*. 1928.

Thesiger, W. *Desert, Marsh and Mountain: The World of a Nomad*. London 1979.

الفهـــرس

